

الفردوس

المحتويات

٧	قصة الفردوس
٢٧	الأديب يدخل الجنة
٣٥	الأديب يركب زورقاً في الجنة
٧٣	مأدبة جامعة في قصر الشيخ محمد عبده بالجنة

قصة الفردوس

بسم الله الرحمن الرحيم، ومنه سبحانه وتعالى نستمد العون والتمسير.
أما بعد؛ فهذه نظرات وفكر، أمل أن تكون موفقة بعيدة الأثر، و«ثمرات أوراق»
يانعات،^١ أرجو أن تكون حبيبة إلى القلوب سائغات، وشطحات أشتات^٢ بين حق وما
يشبه الباطل، وجد وما يشاكل الهزل الهازل، ومناقلات^٣ أبكار، وضعتها على السنة أعلام
بررة أخيار، ومناقفات عذراوات عزوتها إلى أديب أولع بالأدب العربي القديم، وآثاره
العبقريات الأوابد^٤ من نثر ونظيم.

حوال سنة ١٩٠٦م دعاني إليه، المأسوف عليه، إمام اللغة و«البيان» في عصره، الشيخ
إبراهيم اليازجي، وكان قد «نظمني وإياه ودُّ قديم، ولف هواي بهواه عهد كريم»، حتى إذا
أجبتة ناولني دفترًا مخطوطًا، وقال: هذه رسالة الغفران للمعري، كلفني الوراق الناشر
المشهور «أمين هندية» أن أصححها وأضبطها بالشكل الكامل كي يخرجها بالطبع على
هذا الوضع، فنصحت له بأن تقوم أنت بهذه المهمة التي أراها^٥ شاقة مضية، ولكنك —
إن شاء الله — بمثلها زعيم^٦ ...

فقرأت الرسالة، ثم توفرت على ضبطها بعد أن اقترحت على الناشر شرحها، فأبى
إلا طبعها مجردة من الشرح، فكان، وكان أن سُحرت بهذه رسالة الغفران، وكان من
أثر هذا السحر أن فكرت في عمل أنحو فيه هذا المنحى، من جهة المظهر والمبنى، لا
من جهة المخبر والمعنى، وأحتذي فيه على هذا الحذو البديع، وإن لم يدرك الظالع شأوَ
الضليع.^٧ فاستخرت الله تعالى فخار لي، وصممت على ارتسام ما رسمت، وأخذت في هذا
العمل على النحو الذي ترى ... وأسميته «الفردوس أو سياحة في الآخرة»، وكتبت آنئذ
طائفة من الكلام تنتهي بوصول الأديب إلى قصر شيخنا الأستاذ الإمام «محمد عبده» في

الجنة، ثم صرفتني عنه تصارييف الأيام، وخطَرَ الدهرُ من خطراته،^٨ وتصرمت السنون، وتجرمت الدهور،^٩ حتى إذا كانت سنة ١٩٢٧ زارني أحد أصدقائي من كتّاب إحدى المجلات الأسبوعية، وسألني شيئاً ينشره لي، فعرضت عليه أشياء من بينها هذه القطعة من «الفردوس»، فأخذ في إذاعتها، فحفزني ذلك إلى إتمامها، فخطوت فيها خطوات رغبيات^{١٠} ...

وأخيراً، وفي هذه الأيام، اقترح علي أخ لي كريم أن أبادر بطبع هذا «الفردوس» منجماً على أسفار، على الرغم من غلاء الأسعار، فامتثلت وأنا أقدم رجلاً وأوخر أخرى، لا لشيء سوى أنني أخشى ألا يروق مثل هذا الأسلوب طائفة من مثقفي هذا الجيل، لما يغلب على بعض مواضعه من الغريب والصناعة البيانية، من تشبيه واستعارة وسجع وازدواج وتضمين واقتباس ووصف مسهب، وما إلى ذلك مما قد ينبو به ذوقُ فنّامٍ^{١١} من أدباء هذه الأيام ... بيد أنني أظن أن هناك على هذا جمهرة متوافرة من عشاق البيان، ولغة الضاد والفرقان، قد يقع منهم مثل هذا العمل موقِعاً تراخ له نفوسهم،^{١٢} وتصبو إليه أفئدتهم، لا من جهة عرضه هذا العرض المستطرف — وأستغفر الله — فحسب، ولكن لهذا، ولما تضمنه من فكر وآراء هي نتاج التجاريف، وثمار الاطلاع والبحث والتنقيب، يظاهر ذلك حق صراح، وصدق صادق محض براح^{١٣} ...

على أن ما قد يلاحظ من ضروب الصناعة إنما يكثر في صدر «الفردوس» لا في سائره، وفي أوائل عرضه لا في أوساطه وأواخره، إذ وُثِّيَ هذا القسم أيام الشباب، وجنون الغرام بالأدب المزور اللباب،^{١٤} أما ما يفرط من القلم أحياناً مما هو بالهزل والمجون أشبه، فإنما الهدف فيه، بعد الإحماض والتفكيه،^{١٥} هو الاستعانة على ما وراء ذلك، من دقيق الأغراض وخفي المسالك، ورحم الله مَنْ قال: إني لأستجم نفسي بالشيء من اللهو والباطل؛ ليكون ذلك أعون لها على الحق ... أو كما قال.

«وأما بعد» فإن هذا «الفردوس» إنما هو — كما ترى — وصلة إلى عرض أنماط مختلفة من الكلام، وألوان شتى من القول، في كل ما عسى أن يفكر فيه المفكرون، من ضروب العلم والعرفان، وأفانين الثقافة والبيان، وسيطول هذا «الفردوس» ويستوسع، حتى لقد يستوعب عدة أسفار، وحتى ليصح أن يعد هذا السفر غيضاً من فيض، بالإضافة إلى سائر الكتاب.

والله سبحانه هو الموفق إلى إتمام هذا العمل، وأن يجعل القبول حليفه، ورضا الناطقين بالضاد عنه أليفه، إنه سميع الدعاء، وهو حسبي ونعم الوكيل.

عبد الرحمن البرقوقي

ربيع الآخر سنة ١٣٥٩هـ/مايو سنة ١٩٤٠م

حَدَّثَ أَدِيبٌ ثَبَّتْ^{١٦} ثِقَةَ قَالَ:

إني لفي بيتي ذات ليلة من الليالي، وقد تزويت في زاوية من السرير،^{١٧} وبالقرب مني مصباحي الإضحيان المنير،^{١٨} ثم أخذت أنزه النفس، وأجلو صدأ الحس، في روضة من رياض الكتب والأسفار، ونزهة من نزه الأدب والآثار، أجتلي أنوارها،^{١٩} وأجتني من كتب أثمارها،^{٢٠} وأتفياً ظلها الوارف الظليل،^{٢١} وأنسم رَوْحها الندي العليل،^{٢٢} ويرتع قلبي من جنباتها في مرتع خصب، ويكتسي لبي من أوراقها بثوب من الحكمة قشيب،^{٢٣} وأنفي الهم برحيق كوثرها عن ساحة صدري،^{٢٤} وأكرع من جداولها العذاب النطاف وهي بين سحري ونحري،^{٢٥} وأستشفي بترياقها من علل هذا الناس وأدوائه،^{٢٦} ومن بلايا هذا العالم المنكوس وأرزائه.^{٢٧}

عَالَمٌ أَشْبَهُهُوَ الْقُرُودَ وَلَكِنْ خَالَفُوهَا فِي خِفَةِ الْأَزْوَاجِ

* * *

يَحْسُنُ مَرَأَى لِبَنِي آدَمَ وَكُلُّهُمْ فِي الذَّوْقِ لَا يَعْذِبُ
مَا فِيهِمْ بَرٌّ وَلَا نَاسِكٌ إِلَّا إِلَى نَفْعٍ لَهُ يَجْذِبُ
أَفْضَلُ مَنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لَا تَظْلِمُ النَّاسَ وَلَا تَكْذِبُ

* * *

عَوَى الذُّئْبُ فَاسْتَأْنَسَتْ بِالذُّئْبِ إِذْ عَوَى وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطِيرُ

وما زلت في هذه الروضة الذهنية، وهاتيك النزهة الروحية العلوية، إلى أن شمر الدجى للرحيل الذليل، وكاد النهار يصيح بجانب الليل.^{٢٨}

وَقَدْ فَكَّتِ الظُّلَمَاءُ بَعْضَ قِيُودِهَا وَقَدْ قَامَ جَيْشُ اللَّيْلِ لِلْفَجْرِ وَاصْطَفَا

وكان البيت لا يحتوي أحدًا غيري، فكان الصدرَ وكنتُ في طيه السرَّ المكتَّم، وكان الحامل العشاء وكنت الجنين غير التوأم،^{٢٩} وكان الجفن وكنت فيه السلاح،^{٢٠} وكان السحاب المركوم، وكان مصباحي البارق اللماح.^{٣١} وإني لذلك؛ إذ طُرق باب غرفتي طرْقًا خفيًّا، ثم قُرع بعد هنية طرْقًا عنيفًا، فانتهت مما أنا فيه، ومشى قلبي في صدري حتى شاع الذعر في جميع نواحيه، وقلت في نفسي: ترى مَنْ بالباب؟! وَمَنْ الطارق المنتاب؟! أملك كريم، أم شيطان رجيْم؟ وانثالت الهواجس على قلبي انثيالًا،^{٣٢} وتقاطرت الوسوس على صدري أرسالًا،^{٢٤} وإني لمرتطم في هذه الغمرة،^{٣٥} وغاشية هاتيك السكرة،^{٣٦} إذ تحرك الباب في سكون، وفُتح في رفق ولين حتى لا تكاد تحس اختلاجه الظنون،^{٣٧} ثم اقتحم الغرفة شيخ نوراني، مفرغ في قالب إنساني، يسطع النور حواليه، ويرفرف روح الجلال والروعة عليه:

فَتَى رُوحُهُ رُوحٌ بَسِيطٌ كَيَانُهُ وَمَسَكُنُ ذَاكَ الرُّوحِ نُورٌ مُجَسَّدٌ
صَفَى وَنَفَى عَنْهُ القَدَى فَكَانَهُ إِذَا مَا اسْتَشَفَّتَهُ العُيُونُ مُصَعَّدٌ^{٣٨}

* * *

تَنْفُذُ العَيْنِ فِيهِ حَتَّى تَرَاهَا أَخْطَأَتْهُ مِنْ رِقَّةِ المُسْتَشَفِّ
كَهَوَاءٍ بِلَا هَبَاءٍ مَشُوبٍ بِضِيَاءٍ أَرْقُقُ بِذَاكَ وَأُصْفِ

فلا تسل بعد ذلك عما دهاني، فقد قبعت كالقنفذ في مكاني، وبراني الرعب حتى لتقتمني العين ولا تكاد تراني، وتقلصت من الفم الشفتان، وكادت تنقطع نياط الجنان^{٣٩} ونال مني الخوف حتى أحالني عرضًا،^{٤٠} بعد أن أوسعني حرصًا،^{٤١} وفغر الموت فاه،^{٤٢} وكادت تطير من جسمي الحياة، ولم يبق فيَّ إلا نفس خافت، وعين إنسانها باهت:^{٤٣}

رُوحٌ تَرَدَّدَ فِي مِثْلِ الخِلَالِ إِذَا أَطَارَتِ الرِّيْحُ عَنْهُ التُّوبُ لَمْ يَبِينِ

وجملة القول أنني استحلت إلى حال:

يَكَادُ وَجِيبُ قُلُوبِ الرَّجَالِ مِنْ خَوْفِ مَكْرُوهِهَا يَسْمَعُ^{٤٤}

* * *

لَقَدْ خَفْتُ حَتَّى خَلْتُ أَنْ لَيْسَ نَاطِرٌ
وَلَيْسَ فَمٌ إِلَّا بِسِرِّي مُحَدِّثٌ
إِلَى أَحَدٍ غَيْرِي فَكِدْتُ أَطِيرُ
وَلَيْسَ يَدٌ إِلَّا إِلَيَّ تُشِيرُ

ثم لمحت الخيال وقد أخذ يتخطر في الغرفة بين جيئة وذهوب وغدو ورواح، وبعد خطوات معدودات وقف الخيال، وانتصب أمامي انتصاب التمثال، واستقبلني كما يستقبل المصلِّي الإمام، أو بيت الله الحرام، ثم حدقني مبرقًا بعينه، وأتار إليّ — ساهم الوجه — ناظره،^{٤٥} ولحظته وكأنه أشفق علي وخاف إن هو مضى في صمته هذا أن أفيظ،^{٤٦} وألفظ النفس الأخير، فأخذ يُلحح بيديه لإلاحة يريد أن يُفرخ روعي،^{٤٧} ويميت خيفتي، ثم رأيته يترمم،^{٤٨} وأذنت من ناحيته صوتًا خفيًا رقيقًا كأنه خفق النسيم في السحر:^{٤٩} لا عليك يا أخي لا عليك، وليس إلا الخير صرفًا ساقه الله إليك، وليهنتك ما أنت قادم عليه^{٥٠} ... فأنا يا أخي نبي الله الخضر ... وقد أمرت أن أستصحبك وأصعد بك اليوم إلى المحل الأرفع والملكوت الأعلى، إلى حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ... فقم يا أخي، قم ولا تنّ واخلّ الهويناء^{٥١} للضعيف، واتبعني حيثما سرت، ولست أطلب إليك إلا أن تلزم الصمت، ولا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا ...

وما كاد نبي الله الخضر يتم هذه الكلمات حتى قرت العين، وانكشف الرين، وذهب الأين، وكأنما أنشطت من عقال،^{٥٢} فلا وربك: ما البرء بعد السقم، والخصب بعد الجذب، والغنى بعد الفقر، وما طاعة المحبوب، وفرج المكروب، والوصول الدائم، والشباب الناعم، بأحلى وأروح من هذه المنهاة، التي انتهت بها هذه المأساة:^{٥٣}

مَا زَلْتُ فِي عَمَرَاتِ الْمَوْتِ مُطَرَّحًا
فَلَمْ تَزَلْ دَائِبًا تَسْعَى بِلُطْفِكَ لِي
يَضِيقُ عَنِّي وَسِيعُ الرَّأْيِ مِنْ حِيلِي
حَتَّى اخْتَلَسَتْ حَيَاتِي مِنْ يَدَيَّ أَجْلِي

وبعد ذلك أحسست أنا الآخر كأنني استحللت إلى جسم نوراني شفاف، وأن مادة
جثمانني أضت إلى معنى روحاني، وما هو إلا كَلَّا وَلَا، أو كحسو الطائر الماء وقد خاف
الملا،^{٥٤} حتى زويت لنا الأرض،^{٥٥} ورأيتني ونبي الله في صحراء دوية براح قذف خلاء،^{٥٦}
مطوقة أطرافها بأفاق السماء، واسعة الجوانب، مجهولة المذاهب، تغتال الخطى،^{٥٧}
ويحار فيها القطا:^{٥٨}

تَجْرِي الرِّيَّاحُ بِهَا حَسْرَى مُوَلَّهَةً حَيْرَى تَلُوذُ بِأَطْرَافِ الْجَلَامِيدِ

في فسحة الظنون، بيد أنه تكبو دون غاياتها الخواطر وتخسأ الأبصار،^{٥٩} في روعة
الخلود، وهل للخلود روعة أروع من ذا أو انبهار!

فَضَاءٌ يَرُدُّ الْعَيْنَ حَسْرَى يَقْضُ جَنَاحَ الْفِكْرِ وَهُوَ مُحَلَّقٌ

ومفازة هائلة لا تسمع فيها لإواطئ همسا، ولا لإنايح جرسا،^{٦٠} وجو ساجٍ سجسج،^{٦١}
وسحر طلق رُوحٍ أبلج.^{٦٢}

نَسِيمُهُ كَالرَّاحِ لَوْ يُحْتَوَى وَالرُّوحِ لَوْ يُعْقَدُ مُنَحَلُّهُ

* * *

مَنْ نَسِيمٍ كَأَنَّ مَسْرَاهُ فِي الْأَرْضِ وَاحٍ مَسْرَى الْأَزْوَاجِ فِي الْأَجْسَادِ

وسماء زرقاء صافية، ونجوم كأنها في لُجَّة هذا البحر دراري طافية،^{٦٣} أو أزاهرُ
طلَّها الندى فهي ترف رفيفا،^{٦٤} أو قلوب لذعها الحب فهي لا تني خفوقا ووجيفا، أو هي
مسامير أبواب الجنة تبص وتلتمع،^{٦٥} أو هي عيون الأبدية ترنو إلينا رنوات تهيب بنا أن
نستحي ونرتدع،^{٦٦} أو هي ثقوب تخترق طباق السماوات العلى، فتشع منها أنوار الإله
جل وعلا، والبدر منتصب بين هاتيك الكواكب، كأنه ملك بين أجناده والمواكب، وكوكب
الزهرة تأتلق في روعة لمعته، فلولا التقى لقلت جلت قدرته، والجوزاء كفارة تسبح، أو
غادة ترقص في مسرح، والحوت يسبح في السماء كما يسبح بحذق في الماء.

وَبِنَاتُ نَعِشٍ يَشْتَدِدْنَ كَأَنَّهَا بَقَرَاتُ رَمَلٍ خَلْفَهُنَّ جَاذِرٌ

* * *

وَرَنَا إِلَيَّ الْفَرُوقَدَانِ كَمَا رَنْتَ زَرْقَاءُ تَنْظُرُ مِنْ نِقَابٍ أَسْوَدَ

* * *

وَلَا حَتَّ لِسَارِيهَا الثُّرَيَّا كَأَنَّهَا عَلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ قُرْطُ مُسَلْسَلُ

* * *

وَسُهَيْلُ كَوْجِنَةِ الْحَبِّ فِي اللَّوْ نِ وَقَلْبِ الْمُحِبِّ فِي الْخَفَقَانِ
مُسْتَبِيدًا كَأَنَّهُ الْفَارِسُ الْمَعْدُ لَمْ يَبْدُو مُعَارِضَ الْفُرْسَانَ
يُسْرِعُ اللَّمْحَ فِي أَحْمِرَارٍ كَمَا تُسْرِعُ فِي اللَّمْحِ مُقَلَّةُ الْغَضْبَانِ^{٦٧}

* * *

وَقَدْ لَاحَ فَجْرُ يَغْمُرُ الْجَوَّ نُورُهُ كَمَا انْفَجَرَتْ بِالْمَاءِ عَيْنٌ عَلَى الْأَرْضِ

حتى إذا قُوِضت خيام الظلام، وفرت أسراب النجوم من حلق الأنام، لمحت على قيد خطوة^{٦٨} منا بُراقين، أبيضين يققنين،^{٦٩} خيل إليّ أنهما في انتظارنا، معدان لركوبنا، وكذلك كانا؛ فقد تدلّف^{٧٠} إليهما نبي الله الخضر فامتطى أحدهما، ثم أشار إليّ أن أمتطي الآخر، وما كدت أمتطي بُراقي حتى رأيت منه عفريةً نفريّةً مرحًا أرنا صلّتان، كأنه كما قيل شيطان في أشطان،^{٧١} يكاد مما يزدهيه صلفه يطير،^{٧٢} فكأنما لسعته الزنابير،^{٧٣} أو كأن التُّرب الذي يلامسه حسكُ السَّعدان^{٧٤} أو كأنما خالطت هامته الخندريس فهو معربدٌ سكران،^{٧٥} أما البراق فهو الطُّرف نعم الطُّرف^{٧٦} وهو لعبقريته يكاد يستغرق الوصف، وحسبه أنه ركوبة الأنبياء، لا يعرج بهم غيره إلى السماء، وأنت فإذا نظرت مُنعمًا^{٧٧} إليه، خلت الثريا طالعة بين عينيه، وتوهمت الجوزاء في رُسغيه،^{٧٨} وحسبت الضياء قد هريق^{٧٩} عليه.

فَكَأَنَّمَا لَطَمَ الصَّبَاحُ جَبِينَهُ فَاقْتَصَّ مِنْهُ فَخَاضَ فِي أَحْشَائِهِ

أما عيناه فسوداوان، ولكن سوادهما كله نور، يريان الشيء البعيد في حلك
الديجور.^{٨٠}

يُرَى طَامِحَ الْعَيْنَيْنِ يَرْنُو كَأَنَّهُ مُؤَانِسٌ ذُعْرٌ فَهَوَ بِالْأَذْنِ خَائِلٌ^{٨١}

وأما أذناه فَمَوْلَلَتَانِ مرهفتان، كأنهما يِرَاعَتَانِ محرّفتان،^{٨٢} فكأنه مصغٍ لسماع
الإذن بالسُّرى، من سائس لهما لا يُرى، وأما متنه فلين الأعطاف، وطيء الأكناف، فإذا
أنت امتطيته أصبت لياناً في ليان، فكأن ثمة نسباً بين عظامه والخيزران، وأما ذنبه فذيل
العروس، وجناح الطاووس، وأما حافره فالفيروزج زُرْقه، وهو على ذلك كله كالهواء
رقه.

طَرْفٌ تَبَيَّنَ لِلْبَصِيرِ وَغَيْرُهُ فِيهِ النَّجَابَةُ جَارِيًا وَمَقُودًا

* * *

هُدْبٌ فِي جِنْسِهِ وَنَالَ الْمَدَى بِنَفْسِهِ فَهَوَ وَحْدَهُ جِنْسٌ
وَهُوَ إِذَا مَا نَاجَاهُ فَارِسُهُ يَفْهَمُ عَنْهُ مَا تَفْهَمُ الْإِنْسُ

* * *

مَلَكَ الْعُيُونَ فَإِنْ بَدَا أَعْطَيْتَهُ نَظَرَ الْمُحِبِّ إِلَى الْحَبِيبِ الْمُقْبِلِ

وبعد أن امتطينا البراقين، طارا بنا في الجو طيراناً لست أدري ولا إخالني ماذا عسى
أن يُقال في وصفه، وهو معنى من المعاني ليس في وَسْعِ اللغة العبارة عن مثله، وإلا فهل
يكفي أن تقول: بَازَ هَوَى فِي إِثْرِ صَيْدٍ مِنْ مَرَقَبِ،^{٨٣} أو رَجْمٌ انْقِضَ فِي إِثْرِ شَيْطَانٍ مِنْ
كُوكَبِ،^{٨٤} أو كَأَنَّ قَدْ صَارَ لَهُ مِنْ كُلِّ جَارِحَةٍ جَنَاحٌ، أو إِذَا جَرَى الْبَرْقُ خَلْفَهُ كِبَا الْبَرْقِ
وَأَخْطَاهُ النَّجَاحِ،^{٨٥} أو دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ لَا تَكَادُ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ الدَّاعِي حَتَّى تَصْعَدَ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ
تَحِيقُ بِالظُّلُومِ.^{٨٦}

تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لِوَفْدِهَا إِذَا قَرَعَ الْأَبْوَابَ مِنْهُنَّ قَارِعُ

أو هو ما يغزوه ابن هانئ بقوله يصف الخيل، وكأنه رأى البراق بظهر الغيب: ^{٨٧}

وَأَجَلُّ عِلْمِ الْبَرَقِ فِيهَا أَنَّهَا مَرَّتْ بِجَانِحَتَيْهِ وَهِيَ ظَنُونٌ

كلًا، وكيف وما هو إلا رجع الطرف حتى رأيتني ونبي الله الخضر في عالم الأرواح، واقفين بباب الفردوس ودار الأفراح ... الله أكبر، ماذا أرى وأنظر، وفي يقظة أنا أم في منام، وهاتيك حقائق أم هي رؤى وأحلام؟ الحمد لله على سبوغ نعمته، وضفو نيله وعطيته، الحمد لله لقد أجزل لي في العطاء، ومنحني ما لم يُمنحه غير الأنبياء، وسواء أكان ذلك في عالم الخيال أم في عالم الحقائق، وفي عالم اليقظة أم في عالم الرؤى الصوادق، فقد أُتيح لي دخول الجنة قبل الممات، ورأيت كل ما فيها حقًا، وهيهات ذلك لسواي هيهات.

حدّث الأديب الثقة قال:

والآن، وقد أن لي أن أقص عليك سياحتي في جنات الفردوس، وأن أصفها لك وأصف كل ما رأيت فيها على حقه، فهل تترقب مني أكثر مما كان من ذلك الأعرابي الذي طرأ من البادية على حاضرة قد فهقت حضارة، ^{٨٨} واستبحرت رفاهية وعمارة، وزخرت نعيمًا وترفًا، واكتظت بدائع وطرفًا، ثم حضر عرسًا فيها لأحد السراوات، فرأى شيئًا لم تقع العين على مثله في الحواضر، بلّه البواديّ البلاقع المقفرات، ^{٨٩} ثم أريد على أن يصف ما رأى، فوصف ولكنه أضحك وما عدا، ^{٩٠} وأين أنا على ذلك من الأعرابي الذي أذاب الفصاحة وأذابته، وأين عرسه من الجنان وما حوته؟ كلًا، لا أين، ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر مدادًا للكلام عن الجنة لنفد البحر قبل أن ينفد الكلام.

يَفْنَى الْكَلَامَ وَلَا يُحِيطُ بِوَصْفِهَا أَيُّحِيطُ مَا يَفْنَى بِمَا لَا يَنْفَدُ

ويودي كان، أن يكون ذلك في الإمكان، وأن يواتيني كما أشتهي وصف الجنان، فأجلو على أهل الدنيا معنى لو هو برز لهم لتزخرف له ما بين خوافق السماوات والأرض، ولاستحال جمالًا غير الجمال ما بين طولهما والعرض، ولانجابت حلقة هذه الخاسرة، وحل محلها نور إلهي أبدي من نور الآخرة، كما ينجاب الشر بالخير، والضلال

بالهدى، والمرض بالعافية، والنقمة بالنعمة الباقية، نعم، ولو أُتيح لي أن أصف لك الجنة وأنا فيها، راتع بين أهلها، لأتيت لك بكلام علوي فردوسي ملائكي ككلام أهل الجنة إن لم يكن منطبقاً كل الانطباق، فعسى أن يكون مقارباً، ولكني وأسفاه! أحدثك بعد خروجي من الجنة، وتمرغي في أعطاف دنياكم هذه وهويي إلى هذا الحضيض الأوهد ... على أنه إن لم يكن صدّاء فماء،^{٩١} وإن لم يكن خمر فخل، وإن لم يصبها وابل فطل،^{٩٢} ومن لم يجد ماء تيمماً ...

رضوان

رضوان، وما أدراك من رضوان، ثم ما أدراك من هو؟ هو أحد الملائكة المقربين، وحسبه أنه سيد خزنة الجنة التي أعدت للمتقين، وهو نور في نور، يكاد سنا برقه يأخذ بالأبصار، ولو هو صاح في جانبي الديجور،^{٩٣} لانمحت آية الليل ولم يبق إلا النهار، وماذا عسى أن يكون القول في ملك هو ابتسام فم الآخرة ... وإذا كان يوم الفصل فهو فيه قطب الرحي ومركز الدائرة، ولا غرو، فمن ذا الذي يدخل دار السلام إلا بإذنه ورضاه، ومن ذا الذي لا يجعل الازدلاف إليه لذلك وكده وهجيره،^{٩٤} أما أنا فقد أراحني نبي الله الخضر وكفاني مؤنة بذل أي مجهود في سبيل دخول الجنة؛ إذ لم تكد عين رضوان تأخذ الخضر — عليه السلام — حتى فُتح لنا باب الفردوس، وفي هذه اللحظة فرطت مني بادرة كادت تطيح بي في مهواة اليأس من دخولي الجنة^{٩٥} إذ أدركتني حرفة الأدب — لها الله — وجال في صدري أن أنظم أبياتاً أمتدح بها رضوان وأزدلف بها إليه، شُنْشِنْتِي في الدنيا وشُنْشِنْتِي كل أديب،^{٩٦} فاتسق لي ذلك واستقام، وفتح الله عليّ بقصيد بارع موفٍ على الغاية، أطريت فيه رضوان ولا إطرء النصرارى المسيح ابن مريم،^{٩٧} ثم اقتربت من خازن الجنة لأنشده هذا القصيد، وكأن نبي الله الخضر أحس ذلك مني، فنظر إلي نظرة مروعة استنطير لها قلبي ومات من الخوف كما ينمات الملح في الماء ... فأمسكت وسقط في يدي،^{٩٨} واعتذرت إلى الخضر عن هذه الهفوة ونشدته الله أن لا ترهقني من أمري عسراً، فإن ربة الشعر هي التي أوحى إليّ وأغرنتني بهذا الأمر؛ إذ سحرني جمال رضوان وملك عليّ مشاعري وأنساني ما تشارطنا عليه ... ويا الله ما أشأم الأدب على من امتحن به حتى في الآخرة! ... وما لرضوان الذي خلقه الله من طينة الصدق، وفي مهده درج وفي آفاقه يطير، وما للشعر الذي أحسنه كما قيل أكذبه!

هوامش

- (١) أَيْنَع الثمر فهو يانع: أدرك ونضج.
- (٢) الشطحات: من مصطلحات المتصوفة، وهي لديهم عبارة عن كلمات تصدر منهم في حالة الغيبوبة وغلبة شهود الحق تعالى عليهم، بحيث لا يشعرون حينئذ بغير الحق، وقد استعربناها منهم لمختلف وثبات الذهن، وشتى خطرات القلب وفيوضات الخاطر، وكل ما هو من الاستطراد بسبيل.
- (٣) المناقلات: هي أن يتناقل القوم الكلام بينهم ويتنازعوه، تقول: ناقلت فلاناً الحديث إذا حدثته وحدثك، وهي من قبيل المناظرة، ومثلها المثاقفة، وهي من قولهم: ثاقفه مثاقفة فتقفه — كنصره — غالبه فغلبه في الحذق والفتانة وإدراك الشيء، وأصله من ثاقفه: لابعه بالسيف ونحوه، وعذراوات: جمع عذراء، والمراد أنه لم يسبق إليها.
- (٤) الأوابد: جمع أبدة، والمراد: الباقية على الأبد لروعيتها، ويُقال للشوارد من القوافي: أوابد، من ذا قافية شroud: سائرة في البلاد تشرد كما يشرد البعير، قال الفرزدق:

لَنْ تُدْرِكُوا كَرَمِي بِلُؤْمِ أَبِيكُمْ وَأَوَابِدِي بِتَنَحُّلِ الْأَشْعَارِ

- (٥) أراها: أظنها
- (٦) زعيم: كفيل.
- (٧) الظالع هنا: الضعيف، وأصله من الظلج، وهو العرج، والضليع: القوي.
- (٨) هو كقولهم: ضرب الدهر من ضرباته: أي مر من مروره وذهب جانب منه.
- (٩) تصرمت وتجرمت: انقضت.
- (١٠) رغيبات: واسعات.
- (١١) فتأم: جماعات، ولا واحد له من لفظه.
- (١٢) راح له يراح: سر به ووجد له خفة وأريحية.
- (١٣) المحض: الخالص من كل شوب، والبراح: البين الذي لا خفاء به ولا جمجمة.
- (١٤) المزور: المحسن المزخرف، واللباب: الخالص.
- (١٥) الإحماض: التفكيه، يقال: أحمض القوم إحماضاً: إذا أفاضوا فيما يؤنسهم من الحديث، كما يقال: فكه وتفكه، من أحمضت الأبل: إذا ملت من رعي الخلة — وهو الحلو من النبات — اشتته الحمض فتحولت إليه.

(١٦) ثَبَّتْ بفتح الباء: حجة.

(١٧) تزوى: صار في زاوية، وزاوية البيت وأشباهه: ركنه، وفيه معنى الجمع والقبض، وفي الحديث: «إن الله تعالى زوى لي الأرض فأريت مشارقها ومغاريبها.» زوى لي الأرض: جمعها لي.

(١٨) الإضحيان: المضيء.

(١٩) أنوارها: جمع نور — بفتح النون — وهو الزهر. واجتلاها: نظر إليها مجلوة كالعروس.

(٢٠) جنى الثمرة واجتناها: تناولها من شجرتها. ومن كتب: من قرب وتمكن.

(٢١) تظلياً: تظلل. وظل وارف: واسع ممتد. وظل ظليل: دائم الظل، وقد يكون على المبالغة كقولهم: شعر شاعر. وفي القرآن الكريم: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

(٢٢) الرُّوح — بفتح الراء — نسيم الريح. ونسم الريح وتنسمها: تتبع نسيمها وتشممه، قال الراجز:

دَعِ الْمَطَايَا تُنَسِّمُ الْجَنُوبَا إِنَّ لَهَا لَنَبَأً عَجِيبَا
حَنِينُهَا وَمَا اسْتَكَّتْ لُغُوبَا يَشْهَدُ أَنْ قَدْ فَارَقَتْ حَبِيبَا
مَا حَمَلَتْ إِلَّا فَتَى كَثِيبَا يُسِرُّ مِمَّا أَعْلَنْتَ نَصِيبَا
لَوْ تَرَكَ الشَّوْقُ لَنَا قُلُوبَا إِذَا لَأَتْرْنَا بِهِنَّ النَّيْبَا
إِنَّ الْغَرِيبَ يُسْعِدُ الْغَرِيبَا

(٢٣) القشيب: الجديد.

(٢٤) الرحيق: صفوة الخمر. والكوثر: النهر، وهو أيضاً نهر في الجنة.

(٢٥) كرع هنا: شرب. والجداول، جمع جدول: النهر الصغير. والعذاب، جمع عذب: الماء الطيب. والنفاف، جمع نطفة، وهي هنا الماء الصافي. والسَّحْرُ بفتح السين وسكون الحاء: الرثة، وفي حديث عائشة: «مات رسول الله ﷺ بين سحري ونحري»؛ أي مات وهو مستند إلى صدرها.

(٢٦) التَّرياق: بكسر التاء، دواء يدفع السموم.

(٢٧) النكس في الأشياء: معنى يرجع إلى قلب الشيء ورده وجعل أعلاه أسفله، ومقدمه مؤخره، وقد يكون فيه معنى الدعاء عليه بالخيبة، وفي الحديث: «تعس عبد

الدينار وانتكس»؛ أي انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة؛ لأن من انتكس في أمره فقد خاب وخسر. وأرزائه: مصائبه، جمع رزء. (٢٨) يصيح هنا: يظهر، قال الفرزدق:

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي السَّوَادِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

(٢٩) ناقة عشراء: مضى لحملها عشرة أشهر. قال ابن الأثير: قد اتسع في هذا حتى قيل لكل حامل: عشراء، وأكثر ما يطلق على الخيل والإبل. والتوأم: المولود مع غيره في بطن واحد.

(٣٠) الجفن: غمد السيف.

(٣١) سحاب مركوم: تراكم بعضه فوق بعض.

(٣٢) انتاب الرجل القوم انتيابًا: إذا قصدهم ونزل بهم.

(٣٣) يقال: انتال عليه القول؛ أي تتابع وكثر، فلم يدر بأيه يبدأ، وانتال عليه الناس من كل وجه: اجتمعوا وانصبوا.

(٣٤) في الحديث: إن الناس دخلوا عليه بعد موته ﷺ أرسالاً يصلون عليه؛ أي:

أفواجًا وفرقًا متقطعة بعضهم يتلو بعضًا، الواحد رَسَل بفتح الراء والسين.

(٣٥) الغمرة: الشدة.

(٣٦) سكرة الموت والهـم ونحوهما: غشيته.

(٣٧) اختلاجه: حركته.

(٣٨) لعل ابن الرومي يعني بالمصعد: المذاب، ومنه قيل: شراب مصعد إذا عولج

بالنار حتى يحول عما هو عليه.

(٣٩) الجَنان، بفتح الجيم: القلب.

(٤٠) العرض: ما قابل الجواهر.

(٤١) حرصًا: دنفًا وسقمًا وفساد بدن.

(٤٢) فغر: فتح.

(٤٣) خافت: ضعيف. وإنسان العين: ناظرها. وباهت: حائر ينظر متعجبًا.

(٤٤) وجيب القلب: خفقانه واضطرابه.

(٤٥) حدقه: نظر إليه. وبرق بعينه تبريقًا: إذا لآلأ بهما من شدة النظر. وأتأر

إليه النظر: أحده. وساهم الوجه: متغيره.

(٤٦) أفيظ: أموت.

(٤٧) يليح: يشير. وأفرخ روعه: سكن جأشه ويخرج عنه فزعه كما يخرج الفرخ عن البيضة.

(٤٨) ترمرم: حرك فاه للكلام.

(٤٩) أذن أذنًا: استمع، قال قعنب بن أم صاحب:

إِنْ يَسْمَعُوا رَيْبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا مِنِّْي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا
صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ وَإِنْ ذُكِرَتْ بِشَرٍّ عِنْدَهُمْ أُذِنُوا

(٥٠) العرب تقول ليهنئك الفارس — بسكون الهمزة — وليهنك الفارس — بياء ساكنة — ولا يجوز ليهنك، والمراد الدعاء له بأن يكون ما هو قادم عليه خيرًا مستساغًا لا تعب فيه ولا مشقة.

(٥١) المراد بالهويينا هنا: الدعة والركون إلى الأهون من الأمور.

(٥٢) قرت عينه: طابت نفسه وظفر بما يسره، فلا يطمح إلى أكثر منه. والرين كالصدإ يغشي القلب. والأين: النصب والتعب، ويُقال للأخذ بسرعة في أي عمل كان، وللمرضى إذا مرض وللمغشي عليه إذا أفاق كأنما أنشط من عقال أي حل. نشط الحبل: ربطه. وأنشطه حله.

(٥٣) المنهاة: النهاية.

(٥٤) حسا الطائر الماء وتحسى واحتسى: تناوله بمنقاره. والملا: جماعة القوم.

(٥٥) زويت: طويت.

(٥٦) دوية: بعيدة الأطراف مستوية واسعة، قال العجاج:

دَوِيَّةٌ لِهَوْلِهَا دَوِيٌّ لِلرَّيْحِ فِي أَقْرَابِهَا هَوِيٌّ

وبراح: واسعة ظاهرة لا نبات فيها ولا عمران. وقذف: بعيدة تقاذف بمن يسلكها.

(٥٧) تغتال الخطى: يريد لا يستبين فيها المشي من بعدها وسعتها.

(٥٨) القطا: طائر معروف، ويُقال في المثل: إنه لأدل من قطاة؛ لأنها ترد الماء ليلاً

في الفلاة البعيدة، وإذا كانت القطا على ذلك تحار في هذه الفلاة فحسبك بها فلاة!

(٥٩) تخسأ: تكل تعيا.

- (٦٠) الجرس: الصوت.
- (٦١) ساج: ساكن. وسجسج: ليس به حر مؤذ ولا برد شديد.
- (٦٢) طلق: مشرق لا حر فيه ولا برد. وروح: طيب. وأبلج: مشرق مضيء.
- (٦٣) الدراري: جمع الدرة، اللؤلؤة العظيمة، والكواكب تُسمى الدراري. وهذا البحر: يريد السماء.
- (٦٤) رفّ الزهر والنبات: إذا اهتز وتلألاً وأشرق ماؤه.
- (٦٥) بص الشيء: برق وتلألاً ولمح.
- (٦٦) الرنو: إدامة النظر مع سكون الطرف. وأهاب به دعاه، وأصله في الإبل، يقال: أهاب الراعي بالإبل: صاح بها لتقف أو لترجع.
- (٦٧) سهيل يضرب إلى الحمرة وهو دائم الخفقان، فهو يقول وبدا سهيل وقد اجتمع فيه صفة الحبيب، وهي حمرة الوجه وبريقه وصفة المحب وهي خفقان القلب، وقوله مستبداً ... إلخ، مستبداً أي منفرداً في أفق من السماء كأنه فارس قد أعلم نفسه في الحرب بعلامة يُعرف بها، وقد خرج عن معارضة فرسان يحاربهم؛ يعني سائر نجوم السماء، كأن سهيلاً يعارضها في أفق طلوعه. وقوله: يسرع ... إلخ، يصف شدة خفقانه وتلألؤه. يقول: إن سهيلاً يرجع للحظ سريعاً متواتراً مع حمرة فيه كأنه في سرعة رجع البصر محمراً مقلة إنسان غضبان.
- (٦٨) يُقال: هو مني قيد رمح وقيد خطوة — بكسر القاف — أي قدر رمح وقدر خطوة.
- (٦٩) يقق: شديد البياض.
- (٧٠) تدلف: تمشى ودنا.
- (٧١) عفرية نفرية: شيطان خبيث، ونفرية على الإتباع. وأرنأ: جاد النشاط، وصلتان: شديد نشيط أو حديد الفؤاد. وأشطان: جمع شطن: الحبل.
- (٧٢) الصلف: المراد الإعجاب بالنفس وشدة الاعتداد بها، وازدهاه استخفه كزهاه، قال عمر بن أبي ربيعة:

وَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْحَدِيثَ وَأَشْرَقَتْ وَجُوهَ زَهَاهَا الْحُسْنُ أَنْ تَتَّقِنَا

وقال الأخطل:

يَا قَاتِلَ اللَّهِ وَصَلَ الْغَائِنَاتِ إِذَا أَيَقَنَ أَنَّكَ مِمَّنْ قَدَرُهَا الْكِبْرُ

- (٧٣) جمع زُنْبُور: الطائر المعروف الذي يلسع ويهجم على النحل.
- (٧٤) الحسك: الشوك. والسعدان: نبت ذو شوك ينبت في سهول الأرض، وهو من أطيب مراعي الإبل ما دام رطبًا.
- (٧٥) الخندريس: الخمر القديمة.
- (٧٦) الطرف: الكريم الطرفين، الأب والأم، من الخيل ونحوها.
- (٧٧) منعماً: مبالغاً في النظر.
- (٧٨) الرُّسغ: الموضع بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل.
- (٧٩) هريق: أريق وُصِب.
- (٨٠) الحلك: شدة السواد. والديجور: الظلام.
- (٨١) خائل: مختال.
- (٨٢) أُلُّ الشيء: حدد طرفه. واليراعة واحدة اليراع: القصبه التي ينفخ فيها الراعي والقلم وهو المراد هنا.
- (٨٣) الباز: ضرب من الصقور. والمرقب: الموضع المرتفع يعلوه الرقيب.
- (٨٤) الرجم: واحد الرجوم، والمراد هنا ما يظهر في السماء كأنه نجوم تتساقط، وهو معلوم أن الشياطين كانت تُرجم بالرجوم في صدر الإسلام لئلا تسترق السمع، وسيمر بك القول في هذا الموضوع بتفصيل في هذا الكتاب.
- (٨٥) كبا لوجهه: انكب على وجهه.
- (٨٦) تحيق: تنزل. والظلم: الظالم.
- (٨٧) يغزوه: يقصده ويعينه. وابن هانئ: هو الشاعر الأندلسي الضخم قريع المتنبي.

(٨٨) فهق الإناء: امتلاً حتى صار يتصبب.

(٨٩) بله: اسم فعل بمعنى دع واترك.

- (٩٠) أورد صاحب الأعماني وابن قتيبة في عيون الأخبار قصة هذا الأعرابي، ولطرافتها نوردها هنا، قال محمد بن خالد بن يزيد بن معاوية: وكان قد نزل بحلب على الهيثم بن يزيد التنوخي، قال: فبعث، أي الهيثم، إلى ضيف له من عذرة — هو ناهض بن ثومة بن نصيح وكان شاعراً بدويًا فصيحًا، وكان بدويًا جافياً كأنه من الوحش، طيب

الحديث، يقدم البصرة فتؤخذ عنه اللغة، قال محمد بن خالد: فقال الهيثم لهذا الأعرابي، حدّث أبا عبد الله، ما رأيت في حاضرة المسلمين من أعاجيب الأعراس: قال: نعم، رأيت أمورًا معجبة: منها أني رأيت قرية عاصم ابن أبي بكر الهلالي، فإذا أنا بدور متباينة، وإذا أخصاص منظم بعضها إلى بعض، وإذا بها ناس كثير مقبلون ومدبرون وعليهم ثياب حكوا بها ألوان الزهر، فقلت لنفسي: هذا أحد العيدين الأضحى أو الفطر، ثم رجعت إلي ما عذب عني من عقلي، فقلت: خرجت من أهلي في عقب صفر، وقد مضى العيدان قبل ذلك، فبينما أنا واقف ومتعجب أتاني رجل، فأخذ بيدي فأدخلني دارًا قوراء — واسعة — وأدخلني بيتًا قد نجد، في وجهه فرش قد مهدت، وعليها شاب تنال فروع شعره كتفيه، والناس حوله سماطان — صفان — فقلت في نفسي: هذا الأمير الذي يُحكى لنا جلوسه وجلوس الناس حوله، فقلت وأنا مائل بين يديه: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته، ف جذب رجل بيدي، وقال: اجلس، فإن هذا ليس بالأمر. فقلت: ومن هو؟ قال: عروس. قلت: وا ثكل أماه! رب عروس رأيت بالبادية أهون على أصحابه من هن أمه، فلم ألبث إذ دخلت الرجال عليها هنات مدورات من خشب وقضبان، أما ما خف فيحمل حملًا، وأما ما ثقل فيدحرج، فوضعت أماننا، وتعلق القوم حلقًا حلقًا، ثم أتينا بخرق بيض فألقيت بين أيدينا، فظننتها ثيابًا وهممت عندها أن أسأل القوم خرقًا أقطع منها قميصًا، وذلك أني رأيت نسجًا متلاحكًا — متداخلًا بعضه في بعض تداخلًا شديدًا — لا أتبين له سدى ولا لحمة، فلما بسط القوم أيديهم إذا هو يتمزق سريعًا، وإذا هو فيما زعموا صنف من الخبز لا أعرفه، ثم أتينا بطعام كثير من حلو وحامض وحر وبارد، فأكثرته منه وأنا لا أعرف ما في عقبه من التخم والبشم، ثم أتينا بشراب أحمر في عساس — جمع عس وهو القدح الكبير — فلما نظرت إليه قلت: لا حاجة لي فيه، أخاف أن يقتلني، وكان في جانبي رجل ناصح لي — أحسن الله جزاءه — كان ينصح لي من بين أهل المجلس، فقال: يا أعرابي، إنك قد أكثرت من الطعام، وإن شربت الماء انتفخ بطنك، فلما ذكر البطن تذكرت شيئًا كان أوصاني به أبي والأشياخ من أهلي: قالوا: لا تزال حيًّا ما دام شديدًا — يعني البطن — فإذا اختلف فأوص، فلم أزل أتداوى به ولا أمل من شربه، فتدخلني — نالك الخير — صلف لا أعرفه من نفسي، وبكاء لا أعرف سببه ولا عهد لي بمثله، واقتدار على أمر أظن معه أني لو أردت نيل السقف لبلغته، ولو شأوت الأسد لقتلته، وجعلت ألقت إلى الرجل الناصح لي فتحدثني نفسي بهتم أسنانه وهشم أنفه، وأهم أحيانًا بأن أقول له: يا ابن الزانية، فبينما نحن كذلك، إذ هجم علينا شياطين

أربعة: أحدهم قد علق في عنقه جعبة فارسية مشنجة الطرفين — التشنج: التقبض — دقيقة الوسط قد شُبحت بالخيوط شبحًا منكرًا — شُبحت: شُدت — وقد أُلبست قطعة فرو كأنهم يخافون عليها القر، ثم بدر الثاني فأخرج من كمه هنة سوداء كفيشلة الحمار، فوضع طرفها في فيه فضرط فيها فاستتم بها أمرهم، ثم حسب على جحرة فيها (يريد حرّك أصابعه على ثقب هذه الهنة — وهي المزمار — كما يصنع الحاسب حين يعد بأصابعه)، فاستخرج منها صوتًا ملائمًا مشاكلًا بعضه بعضًا كأنه علم الله ينطق، ثم بدر الثالث عليه قميص وسخ، وقد غرق شعره بالدهن معه مرأتان، فجعل يمرى إحداها على الأخرى مريًا، ثم بدر الرابع عليه قميص قصير وسراويل قصير وخفان أجدمان لا ساقين لهما، فجعل يقفز كأنه يثب على ظهور العقارب، ثم التبط بالأرض، فقلت: معتوه ورب الكعبة: «هذا هو الراقص»، ثم ما برح مكانه حتى كان أغبط القوم عندي، ورأيت الناس يحذفونه بالدرهم حذفًا منكرًا، ثم أرسلت إلينا النساء أن أمتعننا من لهوكم، فبعثوا بهم إليهن، وبقيت الأصوات تدور في آذاننا، وكان معنا في البيت شاب لا أبه له، فعلت الأصوات له بالدعاء، فخرج فجاء بخشبة عينها في صدرها، فيها خويطات أربعة، فاستخرج من جنبها عودًا فوضعه على أذنه، ثم زم الخيوط الظاهرة، فلما أحكمها وعرك آذانها حركها بمجسة في يده، فنطقت ورب الكعبة! وإذا هي أحسن قينة رأيتها قط، وغنى عليها فاستخفني في مجلسي حتى قمت فجلست بين يديه، فقلت: بأبي أنت وأمي! ما هذه الدابة؟ فلست أعرفها للأعراب وما خُلقت إلا حديثًا! فقال: يا أعرابي، هذا البربط الذي سمعت به، فقلت: بأبي أنت وأمي! فما هذا الخيط الأسفل؟ قال: زير، قلت: فما الذي يليه؟ قال: مثنى، قلت: فالثالث؟ قال: المثلث، قلت: فالرابع، قال: اليم، قلت: آمنت بالله أولاً وباليم ثانيًا.

(٩١) صداء ركية «بئر» ليس عند العرب ماء أعذب من مائها، وفي المثل: ماء ولا الصداء، يُضرب في الرجلين يكونان ذوي فضل غير أن لأحدهما فضلًا على الآخر.

(٩٢) الطل: المطر الضعيف. والوابل: المطر الشديد.

(٩٣) صاح: ظهر. والديجور: الظلام.

(٩٤) الازدلاف: التقرب. ووكده: قصده. وهجيراه: دأبه.

(٩٥) فرط منه قول: قاله من غير روية، والمراد بالبادرة السقطة والزلة، وهي في الأصل ما ييدر عند حدة الغضب. وطاح به: ذهب به وسقط. والمهواة: الحفرة والبئر، وفي حديث عائشة، ووصفت أباه، وقالت: «وامتاح في المهواة». أرادت البئر العميقة، أي إنه تحمل ما لم يتحمل غيره.

قصة الفردوس

(٩٦) أزدلف: أتقرب. والشنونة: العادة.

(٩٧) الإطراء: مجاوزة الحد في المدح.

(٩٨) يقال للرجل النادم على ما فعل الحسر على ما فرط منه: قد سقط في يده

وأسقط.

الأديب يدخل الجنة

ولما فُتح باب الفردوس أخذت عيناى شجرة شجراً،^١ أصلها ثابت وفرعها في السماء،^٢ ومن سنخ^٣ هذه الشجرة ينبع عيان ثرتان نضاختان،^٤ ينساب منهما نهران يجريان، وحوال هذه الشجرة سرب من الملائكة وقد اصطفوا صفًا صفًا، فحياهم نبي الله الخضر، فحيوا بأحسن من تحيته، ثم غمزني نبي الله بعينيه، وأشار إليّ بأن أنغمس في إحدى هاتين العينين، فسألته جلية الأمر، فقال: وهذه واحدة ... ألم أقل لك لا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا. فقلت له: لا تؤاخذني بما نسيت ولن أعود إلى مثلها، واثمرت بأمره، ونضوت عني ثيابي،^٥ وغطست في ماء العين، فأحسست إثر ذلك كأن شيئاً من أدران الإنسانية كان لا يزال يلتاط بي^٦ ثم زال، وأبدلت من ثم بحالي الأولى أحسن حال، فقد كنت في الدنيا وقد رقت عظامي ونيفت على الستين،^٧ فأصبحت في الأخرى ابن ثلاث وثلاثين، وقد كنت فيها جهماً دميماً جافي الطلعة مقبوح الخلقة،^٨ فقد كان لي وجه كز أشوه كُرشوم شنعنع،^٩ يشق منظره على الحدق.

يُفْرَعُ الصَّبِيَّةُ الصَّغَارُ بِهِ إِذَا بَكَى بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَنْمِ

وكان لي مِخْطَم أنافي كوجار الضب،^{١٠} يا عجباً كيف احتملته في العاجلة، ما يربى على الستين سنة، وشفتان غليظتان هدلاوان كأنهما مشفرا بعير، أو طُراً من فيل،^{١١} وثالثة الأثافي^{١٢} أني كنت وقد مشت رواحي وأجهد القتير في واشتعل الرأس شيباً،^{١٣} وكفى بالشيب وحده عيباً.

يَا مَنْ لِشَيْخٍ قَدْ تَخَدَّدَ لَحْمُهُ
أَفْنَى ثَلَاثَ عَمَائِمِ الْوَانَا
سُودَاءَ حَالِكَةٍ وَسَحَقَ مُقَوِّفٍ
وَأَجَدَّ لُونًا بَعْدَ ذَاكَ هِجَانًا^{١٤}

أه، آهة الرجل الحزين من الشيب، ويا حسرتا على الشباب ... الشباب! وهل الدنيا غيره؟! هل الحياة بمطايبها ومناعمها تستطاب، إلا في أيام الشباب؟! وما متاع الدنيا إذا ولى المقبلان: الشباب والصغر؟! وما المجد والمال إذا أقبل المدبران، الشيب والكبر؟

لَا تَكْذِبَنَّ فَمَا الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
مَنْ الشَّبَابِ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ بَدَلُ
لَا تَلَحَّ مَنْ يَبْكِي شَبِيبَتَهُ^{١٥}
إِلَّا إِذَا لَمْ يَبْكُهَا بِدَمٍ
لَسْنَا نَرَاهَا حَقَّ رُؤْيَيْهَا
إِلَّا زَمَانَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
كَالشَّمْسِ لَا تَبْدُو فَضِيلَتُهَا
حَتَّى تَغْشَى الْأَرْضَ بِالظُّلْمِ
وَلَرَبَّ شَيْءٍ لَا يَبِينُهُ
وُجْدَانُهُ إِلَّا مَعَ الْعَدَمِ

والبيض الحسان، وهن الروح والريحان،^{١٦} وقرة العين،^{١٧} والسكن لذي الأين،^{١٨} وغايات الأمل، ومنسيات الأجل، هل تظفر منهن بالود والهوى ما لم تخطر بينهن برداء الصبا؟ وبأي شفيح تخطب أيها الشيخ ود الغانيات، وقد سود ما بينك وبينهن بياض تلك الشعرات:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي
خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ
فَلَيْسَ لَهُ فِي وَدْهِنَّ نَصِيبُ
يُرِدْنَ ثَرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ عَلِمَنَّهُ
وَشَرَحُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ^{١٩}

* * *

أَعْرَ طَرْفَكَ الْمَرْأَةَ وَانظُرْ فَإِنْ نَبَا^{٢٠}
بِعَيْنِكَ عَنْكَ الشَّيْبُ فَالْبَيْضُ أَعْدَرُ
إِذَا شَنَّتْ عَيْنُ الْفَتَى شَيْبَ نَفْسِهِ
فَعَيْنُ سِوَاهُ بِالشَّنَاءِ أَجْدَرُ^{٢١}

يقولون: في الشيب والوقار، والعفة والحلم والأدب له تبع،^{٢٢} وتلك — عمرك الله — حجة لاجئ إليها العاجزون؛ ففي الموت الوقار الأكبر، وفي الشيب وقار؛ لأنه الموت الأصغر، وهل ما يزعمونه عفة إلا لأن عُرِيت أفراس الصبا ورواحله،^{٢٣} وطارت دواعي المراح ووسائله.

لَيْتَ الْحَوَادِثُ بَاعَتْنِي الَّذِي أَخَذْتُ مَنِّي بِجِلْمِي الَّذِي أَعْطْتُ وَتَجَرَّبِي^{٢٤}
فَمَا الْحَدَاثَةُ مِنْ جِلْمٍ بِمَانَعَةٍ قَدْ يُوجَدُ الْحِلْمُ فِي الشَّبَانِ وَالشَّبِيبِ

* * *

شُعْلَةٌ فِي الْمَفَارِقِ اسْتَوْدَعْتَنِي فِي صَمِيمِ الْفُؤَادِ تَكَلًّا صَمِيمًا
دِقَّةٌ فِي الْحَيَاةِ تَدْعَى جَلَالًا مِثْلَ مَا سَمِّيَ اللَّدِيخُ سَلِيمًا^{٢٥}
حَلَمْتَنِي زَعَمْتُمْ وَأَرَانِي قَبْلَ هَذَا التَّحْلِيمِ كُنْتُ حَلِيمًا

ويقولون: إنما الرأي للشيخ؛ لأن التجاريب قد حنكته، وتصاريف الأدهار قد سبكته،^{٢٦} وأض وقد ضرب آباط الأمور ومغابنها،^{٢٧} واستشف ضمائرهما وبواطنها، فهلا قالوا: إن الأيام نحتت أثلته،^{٢٨} وأخدمت وقده، وأبردت عظامه، وفلت حسامه،^{٢٩} وأساء عليه أثر السن، فأخذت الأيام من لبه كما أخذت من سنه ... وإنما الشيخ لدى النصفة والمعدلة كالزند الذي قد انثلم، ورأي الشبان كالزند الصحيح الذي يري بأيسر اقتداح^{٣٠} ... والله در الفاروق — رضوان الله عليه — إذ كان كلما حزبه أمر،^{٣١} ونزل به معضل، دعا الفتيان واستشارهم، ويقول: هم أحد قلوبًا ... على أن من شيم الشيوخ — كما يقول الحكيم — أن يستبدوا دائمًا بأرائهم ويجمدوا أبدًا على أفكارهم:

وَالشَّيْخُ لَا يَتَرَكُ أَخْلَاقَهُ حَتَّى يُوَارَى فِي تَرَى رَمْسِهِ^{٣٢}

ومن ثم اعتاد سكان جزر فيجي أن يذبحوا آباءهم متى كبروا وحطمتهم السن العالية، وبهذا يعبدون سبيل التطور ويذلون لأنفسهم طريق الرقي والتدرج ... قال الحكيم: ونحن فإننا نتقدم إلى الورا، ونسير القهقري،^{٣٣} بإلقائنا تقاليد أمورنا إلى شيوخنا ... أما أنا فلما رأيتني وقد رددت إلى أرذل العمر،^{٣٤} وأصبحت هامة اليوم أو غد،^{٣٥} وأخذت سفينة الشيب تقترب بي من ساحل الموت، وقد فاتني الشباب وما يستتبعه من متع الحياة كل الفوت، وكنت بغريزتي أمقت ما يسمونه الجد والحشمة والوقار، وكنت مذ جن الصبا مفراحًا ممراحًا لعوبًا متوقدًا كأنني خلقت من مارج من نار،^{٣٦} فزعت في الكبر إلى ابنة العنب أحتسيها،^{٣٧} ووجدت عزائي كله فيها،^{٣٨} ومن أحق من الشيخ بالحريق،^{٣٩} وما الذي يبُلُّ منه الريق، ويصير مائه جاريًا جديدًا، بعد أن كان راكدًا أسنًا بليدًا،^{٤٠} ويضيء سراحه بعد أن طُفيء وخبا،^{٤١} ويورق غصنه بعد أن ذبل وذوى، ويحيي منه ميت النفس، بعد أن ظللته ظلال الرمس، غير الشراب!؟

لَاخَ شَيْبِي فَرُحْتُ أَمْرَحُ فِيهِ مَرَحَ الطَّرْفِ فِي الْعِذَارِ الْمُحَلَّى
وَتَوَلَّى الشَّبَابُ فَازْدَدْتُ رَكْضًا فِي مَيَادِينِ بَاطِلِي إِذْ تَوَلَّى
إِنَّ مَنْ سَاءَ الزَّمَانُ بِشَيْءٍ لِأَحَقِّ أَمْرِي بِأَنْ يَتَسَلَّى^{٤٢}

* * *

اشْرَبْ عَلَى مُوقِ الزَّمَانِ وَلَا تَمُتْ أَسْفًا عَلَيْهِ دَائِمَ الْحَسَرَاتِ^{٤٣}

* * *

لَا تَنَمَّ وَاعْتَنِمْ مَسْرَةَ يَوْمٍ إِنَّ تَحْتَ التُّرَابِ نَوْمًا طَوِيلًا

وبعد، فيرحم الله حبيب بن أوس إذ يقول:

لَوْ رَأَى اللَّهُ أَنَّ فِي الشَّيْبِ خَيْرًا جَاوَرَتْهُ الْأَبْرَارُ فِي الْخُلْدِ شَيْبًا^{٤٤}

وكذلك أبدلني الله إثر دخولي الجنة بشيبي شابًا، وبقبحي حسنًا لبايًا،^{٤٥} فاستحلت — بحمد الله — إلى شاب غض بض،^{٤٦} أهيف القد،^{٤٧} أدمج العين،^{٤٨} مقرون الحاجبين، أسيل الخدين،^{٤٩} رقيق الخصر، حلو الشمائل، قيد النواظر،^{٥٠} أما الوجه فقد صار بعد هذا القبح كأنه البدر ليلة التمام،^{٥١} وأما الأنف الأثافي فقد حال إلى قصبه در وحد حسام، والفم فقد أض إلى حلقة خاتم، أما العين فعين أحور من جآذر جاسم:^{٥٢}

فَإِذَا بَدَا اقْتَادَتْ مَحَاسِنُهُ قَسْرًا إِلَيْهِ أَعِنَّةَ الْحَدَقِ
لَا شَيْءَ إِلَّا وَفِيهِ أَحْسَنُهُ فَالْعَيْنُ مِنْهُ إِلَيْهِ تَنْتَقِلُ
فَوَائِدُ الْعَيْنِ فِيهِ طَارِفَةٌ^{٥٣} كَأَنَّهَا أُخْرِيَاتُهُ أَوْلُ

هوامش

- (١) شجراء: ملتفة كثيرة الأغصان كأنها أجمة.
- (٢) السماء هنا: ما علا وارتفع.
- (٣) السنخ: الأصل.
- (٤) عين ثرة: غزيرة الماء. ونضاخة: فوارة غزيرة.

الأديب يدخل الجنة

- (٥) نضوت: نزعت.
(٦) يلتاط: يلتصق.
(٧) رقت عظامه: كبر وأسن. ونيف على كذا: زاد.
(٨) جهم: كربه وعبوس.
(٩) كز: قبيح، وكذلك أشوه، وكرشوم وشنعنغ، وقبح هذه الألفاظ يناسب قبح مدلولها.
(١٠) مخطم: أنف. وأنافي: عظيم، تقول رجل أنافي: أي عظيم الأنف. ووجار الضب: جحره.
(١١) هدلاوان: مسترخيتان. ومشفر البعير: شفته. وطراً: قطعاً.
(١٢) الأتنية: الحجر توضع عليه القدر، وثالثة الأثافي: القطعة من الجبل تُجعل القدر عليها وعلى حجرين أمامها، ويقال: رماه بثالثة الأثافي: أي بالشر كله.
(١٣) يُقال: مشت رواحله: إذا شاب وضعف. والقতির: الشيب أو أوائله وأصله مسامير الدرع، وسُمي قتيراً لأنه قتر: أي قدر.
(١٤) من أبيات جميلة أولها:

ذَهَبَ الشَّبَابُ فَلَا شَبَابَ جُمَانَا وَكَأَنَّ مَا قَدْ كَانَ لَمْ يَكْ كَانَا
وَطَوَيْتُ كَفِّي يَا جُمَانَ عَلَى الْعَصَا وَكَفَى جُمَانَ بِطَيِّهَا حَدَثَانَا

يَا مَنْ لِشَيْخٍ

... البيتين وبعدهما:

صَحِبَ الزَّمَانَ عَلَى اخْتِلَافِ فُنُونِهِ فَأَرَاهُ مِنْهُ كِرَاهَةً وَهَوَانَا
قَصَرَ اللَّيَالِي خَطْوُهُ فَتَدَانِي وَحَنُونٌ قَائِمٌ صُلْبِهِ فَتَحَانِي
وَالْمَوْتُ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَكَأَنَّمَا يَعْنِي بِذَلِكَ سِوَانَا

قوله جمانا: يريد جمانة، فرحّم، ويقال للشيخ قد تخدد: يراد تشنج وتقبض جلده. وقوله: أفنى ثلاث عمائم ألوانا: يعني أن شعره كان أسود ثم حدث فيه شيب مع السواد، فذلك قوله وسحق مفوف، والتفويف: التنقيش، وهو مأخوذ من الفوف — بضم

الفاء — وهي النكتة البيضاء التي تحدث في أظفار الأحداث، وسُميت بذلك لتشبهها بالفوفة من النواة، وهي الحبة البيضاء في باطن النواة التي تنبت منها النخلة. والسحق: الخلق، يُقال: عنده سحق ثوب. وقوله: أجد لوناً: أي استجد لوناً. والهجان الأبيض: وهي العمامة الثالثة، يعني حين شمله الشيب.

(١٥) لحا الرجل يلحاه: لامه وعذله.

(١٦) البيض: النساء. وروح: استراحة وبرد ورحمة. والريحان في الأصل: كل نبت

طيب الريح، وفُسر بالرزق.

(١٧) قرة العين: ما تقر به العين وتُسّر.

(١٨) السكن: ما يسكن ويرتاح إليه، والأين: التعب والإعياء.

(١٩) بالنساء: عن النساء. وشرخ الشباب: ريعانه.

(٢٠) نبا: قبح فلم تقبله العين.

(٢١) شنأت: أبغضت. والشنأة: البغضة. والبيض: النساء.

(٢٢) العفة: ترك الشهوات. والحلم: الأناة والعقل.

(٢٣) من قول زهير:

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ وَعُزِّي أْفِرَاسُ الصَّبَا وَرَوَّاحِلُهُ

صحا: سلا، من الصحو خلاف السكر. وأقصر عن الشيء: إذا أقلع عنه، قال علماء البيان: أراد زهير بالأفراس والرواحل أن يبين أنه ترك ما كان يقترفه زمن الصبا من الجهل والغبي، وأعرض عن معاودته فبطلت آلاته، فشبه الصبا بجهة من جهات المسير كالحج والتجارة قضي منها الوطر، فأهملت آلاتها، فأثبت له الأفراس والرواحل، فالصبا من الصبوة بمعنى الميل إلى الجهل والفتوة، ويحتمل أنه أراد دواعي النفوس وشهواتها والقوة الحاصلة لها في استيفاء اللذات، أو أراد الأسباب التي قلما تتأخذ في اتباع الغبي إلا أوان الصبا وعنفوان الشباب.

(٢٤) الحلم: الأناة والعقل. يقول: إن الحوادث أخذت شبابه وأعطته العقل والحنكة،

فبوده لو ردت عليه الشباب واستردت الحلم.

(٢٥) اللديغ: الذي لدغته — عضته — الحية والعقرب، ويسمون اللديغ سليماً؛

لأنهم تطيروا من اللديغ، فقلبوا المعنى كما قالوا للحبشي: أبو البيضاء، وكما قالوا للفلاة: مفازة، تفاعلوا بالفوز وهي مهلكة، فتفاعلوا بالسلامة.

(٢٦) حنَّ الدهرُ الرجلَ: جعلته التجارب والأمور وتقلبات الدهر حكيماً. وسبكته: هذبتة.

(٢٧) آباط: جمع إبط، والإبط معروف، وهو أيضاً أسفل حبل الرمل ومسقطه. والمغبين: الرفع؛ أي باطن الفخذ، والمعنى ظاهر.

(٢٨) الأثلة: واحدة الأثل، وهو شجر يشبه الطرفاء، إلا أنه أعظم منها، وخشبه صلب جيد تصنع منه القصاع والجفان، وقد وقعت مجازاً في قولهم: نحت أثلته، إذا تنقصه، قال الأعشى:

ألست منتهياً عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ما أطت الإبل

أطت: حنت.

(٢٩) الحسام: السيف القاطع. وفلته: ثلمت حده.

(٣٠) النصفة: الإنصاف؛ أي إعطاء الحق أو العدل. والمعدلة: ضد الجور. وانثلم: انكسر. والزند: العود الذي يُقْتدح به النار. ووري الزند يرى: اتقد، وقدح بالزند واقتدح: رام الإبراء به.

(٣١) حزبه أمر: نزل به مهم واشتد عليه أو ضغطه.

(٣٢) الرمس: القبر.

(٣٣) القهقرى: الرجوع إلى خلف.

(٣٤) أرذل العمر: آخره في حال الكبر والعجز، والأرذل من كل شيء الرديء منه.

(٣٥) هو هامة اليوم أو غد: أي يموت اليوم أو غداً، والهامة: الرأس، وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يدرك بثأره تصير هامة تزقو عند قبره — تصيح — تقول: اسقوني اسقوني: فإذا أدرك بثأره طارت.

(٣٦) أمقت: أبغض. وجن الصبا: حادثته، وجن كل شيء: أول شداته. ومارج من

نار: نار لا دخان لها، خلُق منها الجان.

(٣٧) فزغ إلى كذا: لجأ إليه واستعان به. وابنة العنب: الخمر. واحتساؤها: شربها.

(٣٨) عزائي: تأسي وحسن صبري.

(٣٩) الرحيق: الخمر.

(٤٠) آسنأ: كآجن لا يشربه أحد من ننته، والكلام كله على المجاز، كما لا يخفى.

(٤١) طفئت النار: ذهب لهبها وجمرها. وخبث النار: سكنت وطفئت وحمد لهبها.

- (٤٢) الطرف: الكريم الطرفين — الأب والأم — من الخيل. والعداز من اللجام: ما سال على خد الفرس. والمحلي: المزين بالحي، يريد مصاغ الفضة.
 (٤٣) الموق: حمق في غباوة، والموق أيضاً طرف العين مما يلي الأنف.
 (٤٤) ورد في الآثار: أن أهل الجنة لا يدخلونها إلا شباناً أبناء ثلاث وثلاثين.
 (٤٥) لباب كل شيء: خالصه وخياره.
 (٤٦) غضاضة الشباب: نضارته وطراوته. والبض: الرخص الجسد الناصع البياض.

- (٤٧) الهيف: رقة الخصر وضمور البطن.
 (٤٨) الدعج: شدة سواد العين مع سعتها، أو شدة سواد سوادها مع شدة بياض بياضها.

- (٤٩) خد أسيل: سهل لين دقيق مستوي.
 (٥٠) قيد النواظر: أي إنه لحلاوته كأنه يقيد العيون فلا تنظر إلى غيره.
 (٥١) يقال لليلة التي يتم فيها القمر: ليلة التمام، بفتح التاء.
 (٥٢) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. والهور: شدة بياض العين، وسواد سوادها.
 وجاسم: موضع بالشام، قال عدي بن الرقاع:

لَوْلَا الْحَيَاءُ وَأَنَّ رَأْسِي قَدْ عَفَا فِيهِ الْمَشِيبُ لَزُرْتُ أُمَّ الْقَاسِمِ
 فَكَأَنَّهَا بَيْنَ النِّسَاءِ أَعَارَهَا عَيْنَيْهِ أَحْوَرُ مِنْ جَاذِرِ جَاسِمِ

- (٥٣) طارفة: يريد متجددة.

الأديب يركب زورقاً في الجنة

حدّث الأديب الثقة قال:

ثم أجلت بصري حواليّ فوجدت في أقرب النهرين إلينا زورقاً جميلاً ألقاً يتلألأً
تلاؤلُ النجم الساطع، والكوكب اللامع، وقد قام على جاليه الولدان المخلدون،^١ وحوار عين
كأمثال اللؤلؤ المكنون،^٢ فسمت نبي الله الخضر سمته، فتبعته، ثم نزل فنزلت، فتلقانا
الولدان باشين بنا هاشين، فرحين مستبشرين، وما كدنا نضع أقدامنا في الزورق حتى
أقلع وتقاذف بنا في النهر وانساب انسياب الحباب، ومضى مضي العقاب، وصار يطوي
النهر طي السجل للكتاب:^٣

تَرَى الحَرَكَاتِ مِنْهُ بِلا سُكُونٍ فَتَحَسِبُهَا «لِسُرْعَتِهِ» سُكُونًا
كَسِيرِ «الأَرْضِ» لَيْسَ بِمُسْتَقَرًّا وَلَيْسَ بِمُمْكِنٍ أَنْ يَسْتَبِينَا

أما الزورق فمن الذهب الوهاج الضحيان،^٤ المسمر بالماس والياقوت والمرجان،
أما شراعه فمن الخز الأدكن،^٥ وحبالها من الدمقس المفتل،^٦ وأما دوقله فمن اللجين،^٧
وسكانه فمن الذهب العين،^٨ وما أجمل المردي في يد النوتي،^٩ وقد فرش الزورق بزرايبي
مبثوثة من إستبرق، ونمارق مصفوفة من سندس أخضر وديباج أزرق.^{١٠}

بُسْطُ أَجَادِ الرِّسَمِ صَانِعُهَا وَيَكَادُ يَقْطِفُ مِنْ أَزَاهِرِهَا
وَزَهَا عَلَيْهَا النَّقْشُ وَالشَّكْلُ وَيَكَادُ يَسْقُطُ فَوْقَهَا النَّحْلُ

وأنت فإذا أنعمت فيه النظر، وهو يشق طائرًا عباب النهر، وحواليه زوارق أخرى تسابقه، ولكنها لا تكاد تلحقه، حسبت طواويس أبرزت رقابها، ونشرت أجنحتها وأذناها، وكأنها إذا جدت في اللحاق، وتنافست في السباق نوافر نعام، أو حوافل أنعام، وويلي من الولدان وهم يجدفون بمجاديف من الجمان، رءوسها من العقيان،^{١١} كأنها طير تنفض خوافيها،^{١٢} أو حبات تعانق حبات بأيديها، في ماء جاش أذيه^{١٣} وهو أصفى من البلور، وأبيض من الفضة، وأحلى من الشهد:

هُوَ الْجَوْ مِنْ رِقَّةٍ غَيْرَ أَنَّ مَكَانَ الطُّيُورِ يَطِيرُ السَّمَكُ

طينه المسك الأذفر،^{١٤} ورضراضه الدر الأبيض والياقوت الأحمر،^{١٥} وحفافاه قباب اللؤلؤ المجوف القمر،^{١٦} تطل عليه القصور المشيدة المبنية من صنوف الجواهر، تحفها الرياض الضواحك التي تستوقف فيها حدق الأزاهر، حدق النواظر:

الْأَنْفُ وَالطَّرْفُ فِيهَا يَسْرَحَانِ مَعًا فِي مَبْسَمِ أَرْجٍ أَوْ مَنْظَرٍ قَشِبِ

* * *

وَالْمَاءُ يَفْصِلُ بَيْنَ زَهْرِ الرَّوِّ ضِ فِي الشَّطِّينِ فَصَلًا
كِبْسَاطٍ وَشِيٍّ جَرَّدَتْ أَيْدِي الْقِيَانِ عَلَيْهِ نَصَلًا

وأفانين الطير بالنهر محدقة، وغرائبها بالغصون معلقة، متغايرة الألوان والصفات، متنوعة الأصوات واللغات:

وَرُقٌّ تَغْنَى عَلَى خُضِرٍ مُهْدَلَّةٍ تَسْمُو بِهَا وَتَمَسُّ الْأَرْضَ أَحْيَانًا
تَخَالُ طَائِرَهَا نَشْوَانَ مِنْ طَرَبٍ وَالْغُصْنَ مِنْ هَزِهِ عَطْفِيهِ نَشْوَانًا

وتنظر فترى أسراب الإوز والبط، منثورة في الماء والشط:

وَكَأَنَّ الطُّيُورَ إِذْ وَرَدَتْهُ مِنْ صَفَاءٍ بِهِ تَرُقُّ فِرَاحًا^{١٧}

الأديب يركب زورقًا في الجنة

وأقاطيع الطباء والبقر، تطفو وترتع على حفا في النهر:

مَا إِنْ يَزَالُ عَلَيْهِ ظَبْيِي كَارِعٌ كَتَطَّلُعِ الْحَسَنَاءِ فِي الْمِرَاةِ

والسمك يعوم بعضه في الماء، وبعضه ينزو^{١٨} في الفضاء:

يَعْمَنَ فِيهِ بِأَوْسَاطٍ مُجَنِّحَةٍ كَالطَّيْرِ تَنْفُضُ فِي جَوْ حَوَافِيهَا

وما زلت في هذه النزهة الفردوسية التي يقصر عنها وصف الواصف حتى رسا بنا الزورق على قصر منيف بهيج، في روض مغن ضاحك عقب الأريج، يختال حسنًا ونضارة، ويُزهى رواء وغضارة:

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلُقُ يَخْتَالُ ضَاحِكًا مَنِ الْحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ

فنظر إليّ نبي الله الخضر باسمًا، وقال: أندري لمن هذا القصر؟ هذا قصر أحب الناس إليك، هذا قصر أستاذك في الدنيا «الشيخ محمد عبده»، وإني آنس منك التوق إلى لقائه، فهلم وسأفارقك إلى حين.

حدّث الأديب الثقة قال:

وما كدت أزايل الزورق وأضع قدمي في الشاطئ حتى تلقاني الولدان المخلدون، يترقق في وجوههم ماء النعيم النضر، وحوار عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، يختلن في ثياب من سندس خضر، ثم أطفأوا بي كما يطيف ولدان أهل الدنيا بالحميم يقدم من غيبته، ثم مشوا بي على رود ومهل^{١٩} في بستان مشرق مونق تزدهر أزهاره، وتشتجر أشجاره، وتستأسد نجومه،^{٢٠} ويُجنُّ جميمه،^{٢١} وتغرد أطيّاره، وتجري أنهاره، ثم استشرفت فأنست — على غلوة سهم منا وفي بهرة البستان^{٢٢} — خيمة من اللؤلؤ المجوف أطنا بها من الزبرجد، وأوتادها من الياقوت الأحمر، حتى إذا وصل الولدان إلى الخيمة أشاروا إليّ بالدخول، فرميت ببصري فرأيت ثلة من خيرة المصريين^{٢٣} جالسين كجماع الثريا على سرر متقابلين:^{٢٤}

بِيضُ الْوُجُوهِ كَرِيمَةً أَحْسَابُهُمْ شُمُّ الْأَنْوْفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

وممن عرفت منهم: الشيخ محمد عبده، والشيخ حسن الطويل، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وقاسم أمين، وأحمد فتحي زغلول، ومحمود سامي البارودي، وإسماعيل صبري، وإبراهيم المويلحي، وحفني ناصف، وحسن جلال، وحمزة فتح الله، وملك ناصف (باحثة البادية)، وعبد الحامولي، وسلامة حجازي، وإمام العبد، فسلمت فردوا عليّ السلام، وكأني بهم وقد عرفوني، فأقبلوا عليّ يصابحونني ويعانقونني أحر عناق، وأشرفت وجوههم على إشراقها أيما إشراق، ونظرت فرأيت الملائكة يدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ... وبعد أن اطمأن بنا المجلس دخل علينا سرب من الحور العين، يحمل بعضهن أطباقاً من الذهب فيها من فاكهة الجنة ألوان، وبعض يحملن الورود والرياحين، وأخريات يشتلن ألواناً من الكئوس والأباريق والدنان. ٢٥

وَشَرَابًا أَلَذَّ مِنْ نَظَرِ الْمَعْدِ شُوقٍ فِي وَجْهِ الْعَاشِقِ بِإِسْخَامِ
لَا غَلِيظًا تَنْبُو الطَّبِيعَةَ عَنْهُ نَبْوَةَ السَّمْعِ عَنْ شَنِيعِ الْكَلَامِ

* * *

مِنْ سُلَافٍ كَأَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ يَتَمَنَّى مُخَيَّرٌ أَنْ يَكُونَا
أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمَتْ مِنْهَا وَتَبَقَّى لِبَابِهَا الْمَكُونَا
فَإِذَا مَا لَمَسَتْهَا فَهَبَاءٌ تَمْنَعُ اللَّمَسَ مَا تُبِيحُ الْعُيُونَا
فِي كئُوسٍ كَأَنَّهِنَّ نُجُومٌ جَارِيَاتٌ بَرُوجُهَا أَيْدِينَا

* * *

تُعَاطِيكُهَا كَفُّ كَأَنَّ بِنَانَهَا إِذَا اعْتَرَضَتْهَا الْعَيْنُ كَفُّ مَدَارِ

* * *

حَوْرَاءَ إِنْ نَظَرْتَ إِلَيْهِ كَ سَقَّتْكَ بِالْعَيْنَيْنِ حَمْرًا

* * *

فِي مَجْلِسِ ضَحِكَ السُّرُرِ بِهِ عَنْ نَاجِدِيهِ وَحَلَّتِ الْحَمْرُ

فتفكهنّا جميعًا بفاكهة الجنة، وتشممنا الورود والأزهار والرياحين، ثم طيف علينا بالراح، وأديرت بيننا الكئوس وكلنا عرض عليه الشراب، وكلنا شرب ما عدا إمام العبد، فانتهزت فرصة تشاغل الإخوان بالتفكه والشراب، وحرمان إمام من العُقار،^{٢٦} فاختلست الحديث إليه اختلاس النسيم لنفحة الأزهار، واستلبته استلاب الشمس لرضاب ظل الأسحار،^{٢٧} وألقمته أذني فصب فيها حديثًا لم نشعر معه بوقت؛ إذ كان أوحى^{٢٨} من ومضة برق، وقد مر دون أن يلتفت إليه الإخوان؛ إذ كل شيء في دار السلام غيره في دار الأحزان، قلت له بصوت خافت أريد مداعبته: لعل السبب يا إمام، من حرمانك المدام، أنك كنت في الدنيا من السودان، لا من البيضان، وهل يستوي الليل والنهار، أم هل تستوي الظلمات والأنوار؟! فافتت إمام وأومض^{٢٩} حتى تبدت نواجذه، ثم ضحك ضحكته العالية، المعروفة عنه في الدار الفانية، وكانت وحدها لتفجير ينابيع الضحك في صدور جلسه كافية، ثم قال: لقد أدمنت يا أخي شرب الخمر في الحياة الدنيا، وما زلت أعاقرها حتى صرعتني وأثارت مني، فهل تشرئب أطماعي إلى أن أحظى بها في الآجلة، بعد أن نلت منها هذا النيل في العاجلة؟ أما يكفيني أنني دخلت الجنة التي أعدت للمتقين، وأني أستمع الآن بمائة حوراء؛ لأن سوادي في الدنيا حال بيني وبين كل بيضاء، وأنا القائل لذلك فيها:

أَنَا لَيْلٌ وَكُلُّ حَسَنَاءَ شَمْسٌ فَاجْتَمَاعِي بِهَا مِنَ الْمُسْتَحِيلِ

والقائل:

وَسَوْدَاءَ كَاللَّيْلِ الْبَهِيمِ عَشِقْتُهَا
إِذَا ضَمَمْنَا لَيْلٌ تَبَسَّمَ نَعْرُهَا
لَأَجْمَعَ بَيْنَ الْحِطِّ وَاللَّيْلِ فِي عَيْنِي
فَلَوْلَا سَنَاهَا بَتُّ فِي جُنْحِ لَيْلَيْنِ^{٣٠}

قلت له: وبماذا دخلت الجنة يا إمام؟ قال: بإضحائي في الدنيا الأنام. قلت: وهل الضحك يدخل صاحبه جنة النعيم؟! قال: وهل الضحك إلا آية حسن الظن بالله الغفور الرحيم، ولقد غفر الله لأبي نواس — وهو من تعلم — إذ أحسن ظنه بربه، فقال:

تَبَسَّطْنَا عَلَى الْآثَامِ لَمَّا رَأَيْنَا الْعَفْوَ مِنْ تَمْرِ الدُّنُوبِ

ويقول:

تَكْتَرُ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ بَالِغٌ رَبًّا غَفُورًا
سَتُبْصِرُ إِنْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ غَفْوًا وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرًا
تَعْصُ نَدَامَةً كَفَيْكَ مِمَّا تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّارِ السُّرُورًا

ثم قال إمام: ولقد كنت أنا الآخر حسن الظن بالله؛ إذ كنت في الدنيا كما تعلم رجلاً مفلوگًا محدودًا محارفًا جذب المعيشة مقتراً عليّ في الرزق،^{٣١} أرمق العيش على برّض، حتى لكأني كنت أستقطره من أخرات الإبر،^{٣٢} وكأن القضاء أحرقت سفائني دون الغنى والثراء، ولقد قلت وأنا في دار الهموم:

خُلِقْتُ بَيْنَ أَنْاسٍ لَا خَلَقَ لَهُمْ فَبَاعَنِي الدِّينَ لِلدُّنْيَا بِلَا تَمَنٍ
لَوْلَا بَقِيَّةُ دِينٍ أَمَسَكْتَ قَلَمِي لَقُلْتُ إِنَّ إِلَهَ الْخَلْقِ لَمْ يَرِنِي^{٣٣}

وأنت تعلم:

أَنَّ الثَّرَاءَ هُوَ الْخُلُودُ وَأَنَّ الْمَرْءَ يَكْرُبُ يَوْمَهُ الْعَدَمَ

ولكنني على ذلك كنت عند قول شاعر الدنيا شوقي:

فَإِنَّ السَّعَادَةَ غَيْرُ الظُّهُورِ وَعَيْرُ الثَّرَاءِ وَعَيْرُ التَّرَفِ
وَلِكِنَّهَا فِي نَوَاحِي الضَّمِيرِ إِذَا هُوَ بِاللُّؤْمِ لَمْ يُكْتَنَفِ

وكنت لا ألهع ولا أستوهل^{٣٤} لأي مكروه دعاني الله به ونزل بساحتي، وكنت كلما مسني الضر وهر عليّ الزمان^{٣٥} ازددت تيهًا على الدهر، وسخرًا من الأيام، فكان لسان حالي ما يقول ابن دريد:

لَا تَحْسَبَنَّ يَا دَهْرُ أَنِّي ضَارِعٌ لِنَكْبَةٍ تَعْرِقُنِي عَرَقَ الْمُدَى^{٣٦}
مَارَسْتَ مَنْ لَوْ هَوَتِ الْأَفْلَاحُ مِنْ جَوَانِبِ الْجَوِّ عَلَيْهِ مَا شَكَا

هذا إلى أني نظرت فرأيت أنه ما من إنسان، في دار الأحزان، إلا وهو آخذ من لأوائها بنصيب،^{٣٧} فكل من فيها لذلك بحاجة، أي حاجة، إلى من يروح عنه ويهون عليه ... وكأن الأقدار الرحيمة التي أبت لحكمة بالغة إلا أن تجعل بجانب الخير شرًا، والنفع ضرًا، والخلو مرًا، أنشأت أمثالي ليقوموا بمداواة النفوس، وتخفيف ما يئودها من هم وبوس،^{٣٨} ولا دواء إلا الدعابة والمجون والضحك.

إِنَّمَا لِلنَّاسِ مِنَّا حُسْنُ خُلُقٍ وَمَزَاحٍ
وَلَنَا مَا كَانَ فِينَا مِنْ فَسَادٍ وَصَلَاخٍ

قال إمام: على أن في الضحك معنى غريبًا من غير هذه الباب^{٣٩} وقفت في الدنيا على مستسرة،^{٤٠} ذلك أن الضحك سر من الأسرار الكبار، التي تبعث على الإجلال والإكبار، فقد كنت في الدنيا متى أحسست من أناس شموخًا وكبرياء وإزراء بي وإعراضًا عني، فانبعثت ضاحكًا كأنني أنكرهم ولا أكثر لهم ولا أعبأ بهم، كأن لم يكونوا شيئًا، لا يلبثون أن تستقيم أخدامهم،^{٤١} ويطأطئوا من كبريائهم ... وكنت كلما استغربت في الضحك واستغربت — على شريطة أن أكون صادقًا لا يرى علي أدنى تعمّل — تحاقرت إليهم نفوسهم، وامتلاّت بي عيونهم، وانبسطوا إليّ، وأقبلوا بنشاطهم عليّ، وهلم حتى أطولهم وأركب يافوخهم وأستولي على الأمد ... فعليك في دار النفاق بالضحك؛ فإنه أمضى سلاح تنتضيه كلما أنست ممن حولك شيئًا من الزهو والعجرفة ... ولذلك سبب: هو أن الضحك عنوان الهناءة والسعادة، فإذا ضحكت بكل قلبك كان هذا الضحك منبهة للناس على جليل خطرهم ورفعته شأنك، فتراهم بعد أن كانوا يرحمونك، يحسدونك، وبعد أن كانوا يحقرونك، يكبرونك:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَلْقَى الْأَنَامَ مُعْظَمًا فَلَا تَلْفَهُمْ إِلَّا وَأَنْتَ سَعِيدٌ

وسبب آخر: هو أن الضحك دليل الثقة بالنفس والاعتداد بها والإدلال بقيمتها، فإذا ضحكت فإنما ذلك لأنك بنفسك وثقت، ولا شيء يبعث على تعظيم قدرك مثل ثقنتك بنفسك، وعلى العكس من ذلك كله: الإطراق والاكتئاب.

قال الأديب: وكذلك كان إمام، فقد كان دائماً طلق المحيا، ضاحك السن، ظريف المحاضرة، بديع النادرة، فكه الأخلاق، خفة روح الزمان، تَرَّاح له القلوب، ويمازج الأرواح، وتشربه الضمائر. وإذا صح أن للضحك أمة، فقد كان إمام نبي أمة الضحك، وكانت معجزته أنه ما من إنسان، كان ما كان، من الخشونة والوقار، والعبوس والاكفهرار، والإطراق والانقباض، والحزن والارتماض، ثم رأى إماماً، قبل أن يتدفق كلاماً، إلا سرى عنه الهم، وتبسم قلبه قبل الفم، ناهيك بعد ذلك بمجونه وطرفه، ونواتره ومُلمحه، التي كانت تفعل بسامعيها فعل الراح بشاربيها، وإنها لنعمة من نعم الله الكبرى أن وُجد في عصرنا مثل إمام ...

أَبُو عَلِيٍّ أَخْلَقَهُ زَهْرٌ غَبَّ سَمَاءٍ وَرُوحَهُ قُدُسٌ
يَشْتَاقُهُ مِنْ جَمَالِهِ غَدُهُ وَيُكْثِرُ الْوَجْدَ نَحْوَهُ الْأَمْسُ
أَيَّامَنَا فِي ظِلَالِهِ أَبَدًا فَضْلُ رَبِيعٍ وَدَهْرُنَا عُرْسُ
لَا كَأَنَّا قَدْ أَصْبَحُوا صَدًّا لـ عَيْشِ كَأَنَّ الدَّهْرَ بِهِمْ حَبْسُ

ثم قال إمام: أما السواد الذي حسبته عاباً، وساء مآباً، فأين أنت من قول الله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، ومما ورد في الأثر: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»، وبديع ما قال ابن عمي سحيم:

إِنْ كُنْتُ عَبْدًا فَنَفْسِي حُرَّةٌ كَرَمًا أَوْ أَسْوَدَ اللَّوْنِ إِنِّي أَبْيَضُ الْخُلُقِ

وأبو الطيب إذ يقول:

إِنَّمَا الْجِلْدُ مَلْبَسٌ وَأَبْيَضُ الْخُلُقِ سِقِّ حَيْرٌ مِنَ ابْيَاضِ الْقَبَائِ

وأظنك لا تجهل قصيدة رياح بن سنيح الزنجي، مولى بني ناجية التي ذكر فيها أكثر من ولدته الزنج من أشراف العرب، يجيب بها جريراً حين قال جرير:

لَا تَطْلُبَنَّ حُتُولَةً فِي تَغْلِبِ فَالزَّنْجُ أَكْرَمُ مِنْهُمْ أَحْوَالًا

الأديب يركب زورقًا في الجنة

فتحرك رياح وقال هذه القصيدة، وفيها يقول:

وَالزُّنُجُ لَوْ لَاقَيْتَهُمْ فِي صَفِّهِمْ لَاقَيْتَ نَمَّ جَحَاجِحًا أَبْطَالًا^{٤٢}

ولقد أشاد الشعراء في الدنيا بالسواد، وشببوا القصائد بالسوداوات، حتى فضلوهن على البيضاءوات، وحسبك ما يقول ابن قلاقس السكندري:

رُبَّ سَوْدَاءٍ وَهِيَ بَيْضَاءٌ مَعْنَى نَافَسَ الْمِسْكَ عِنْدَهَا الْكَافُورُ
مِثْلُ حَبِّ الْعَيْنِ يَحْسَبُهُ النَّاسُ سُ سَوَادًا وَإِنَّمَا هُوَ نُورُ

وَصُرِّدُرُ إِذْ يَقُولُ:

عُلِّقْتُهَا سَوْدَاءَ مَصْقُولَةً سَوَادُ قَلْبِي صَفَّةٌ فِيهَا
مَا أَنْكَسَفَ الْبَدْرُ عَلَى تَمِّهِ وَنُورُهُ إِلَّا لِإِحْكِيهَا
لِأَجْلِهَا الْأَزْمَانُ أَوْقَاتُهَا مُورِّخَاتُ بِلْيَالِهَا

ولقد أتى ابن الرومي في هذا الباب بالعجب العجاب، فكان كما قيل: جرى الوادي فطمَّ على القرى^{٤٣} ... قال من أبيات يصف جارية سوداء لعبد الملك بن صالح:

سَوْدَاءٌ لَمْ تَنْتَسِبْ إِلَى بَرِّصِ الشُّقْفِ سِرٍ وَلَا كُفْلَةٍ وَلَا بَهَقِ^{٤٤}
لَيْسَتْ مِنَ الْعُبْسِ الْأَكْفُفِ وَلَا الْفُلِّ حِ الشَّفَاهِ الْخَبَائِثِ الْعَرَقِ^{٤٥}
فِي لَيْنِ سَمُورَةٍ تَخَيَّرَهَا الْفَرَا ءُ أَوْ لَيْنِ جِيدِ الدُّلَقِ^{٤٦}
تُذَكِّرُكَ الْمِسْكَ وَالْغَوَالِي وَالسُّ كَ ذَوَاتِ النَّسِيمِ وَالْعَبَقِ^{٤٧}
أَكْسَبَهَا الْحُبُّ أَنَّهَا صَبِغَتْ صِبْغَةَ حَبِّ الْقُلُوبِ وَالْحَدَقِ
فَانصَرَفَتْ نَحْوَهَا الضَّمَائِرُ وَالْأَبْصَ رِ يُعْنِقُنَ أَيَّمَا عَنَقِ^{٤٨}
يَفْتَرُّ ذَاكَ السَّوَادَ عَنْ يَقِقِ مِنْ نُغْرَهَا كَاللَّائِي النَّسَقِ^{٤٩}
كَأَنَّهَا وَالْمِزَاحُ يُضْحِكُهَا لَيْلُ تَفَرَّى دُجَاهُ عَنْ فَلَقِ^{٥٠}
وَبَعْضُ مَا فَضَّلَ السَّوَادَ بِهِ وَالْحَقُّ دُو سُلَّمِ وَدُو نَفَقِ
أَلَّا يَعِيبَ السَّوَادَ حُلْكَتُهُ وَقَدْ يُعَابُ الْبَيَاضُ بِالْبَهَقِ^{٥١}

قلت له: إني يا إمام أعابك كما كنت أعابك في العاجلة؛ إذ كنت أحاول بذلك استثارة دفائنك، واستخراج كنوزك ونوادرك، وإذ كنت أحبك كل الحب هناك، فهل كنت تحبني كما كنت أحبك يا إمام؟ قال إمام: وهل تظن كما يظن العامة، وكثير من الخاصة، أن من أحب إنساناً أحبه المحبوب، وتشابكت القلوب والقلوب؟! وأين أنت إذن من قول ذلك الشاعر الجاهلي، وقد أصاب مقطع الحق:

جُنِنَّا عَلَى لَيْلَى وَجُنَّتْ بَغَيْرِنَا وَأُخْرَى بِنَا مَجْنُونَةٌ لَا نُرِيدُهَا
وَكَيْفَ يَوُدُّ الْقَلْبُ مَنْ لَا يَوُدُّهُ بَلَى قَدْ تُرِيدُ النَّفْسُ مَنْ لَا يُرِيدُهَا

فضحكت وضحك إمام ... ثم قلت له: وأين نزلك يا إمام؟ قال: في مكان قصي حيث ينزل أشعب وجحا والجمازي والغازي وأبو دلامة وأبو الشمقمق والشيخ علي الليثي، وكثير من أعيان المُجَان في الإسلام، وكلما تاقت نفسي إلى رؤية معاصري في الدنيا من أهل مصر جئت إلى حيث هؤلاء الأئمة الأعلام، ولعلك زائري بعد هذه الزورة، حيث تلاقي كل مسرة.

حدّث الأديب الثقة قال:

وإني لفي حوار مع إمام؛ إذ أقبل عليّ الإخوان جميعاً يستنبئونني عن حال مصر، ويستطلعون طلعتها، كلٌّ من الجانب الذي كان يعنيه في العاجلة: أما الشيخ محمد عبده فكان تَسألُه عن الدين وما ألم به، والأزهر وما نزل بساحته، وكان سؤال الشيخ حسن الطويل عن العلم والفلسفة، وقاسم أمين وملك ناصف فكان سؤالهما عن المرأة المصرية، وفتحي زغلول عن الحالة الأخلاقية والاجتماعية، ومصطفى كامل ومحمد فريد فكاننا سَئولَين عن الحالة السياسية، وكان سؤال البارودي وإسماعيل صبري عن الشعر، والمويلحي وحفني ناصف عن الكتابة والأدب، وحمزة فتح الله عن اللغة، وحسن جلال عن القضاء، وعبده الحامولي عن الغناء والموسيقى، والشيخ سلامة عن التمثيل ... فوقعت في حيص بيص،^٢ وحاولت التملص والانفلات، والإقالة من هذه العثرات ... قلت: وما تسألكم عن أشياء إن تبد لكم عسى أن تسوءكم، ولقد أراحكم الله من الخاسرة وأباطيلها، وأم دفر وأفاعيلها،^٣ وأصاركم إلى ما أنتم فيه من نضرة النعيم والترفيه! على أن أكثر ما سألتموني عنه لست من ليله ولا سمره،^٤ فلقد كنت في العاجلة أمقت السياسة كل المقت وأجتوي الاشتغال بها وبأهلها، وكنت أراها ضرباً من التبطل واللهو^٥ وعمل من

لا عمل له ... ولقد كان الجدل — وبخاصة في السياسة والدين — من أبغض الأشياء إليَّ وأبعدها في رأيي عن اليقين:

لَذَوِي الْجِدَالِ إِذَا غَدَوْا لِجِدَالِهِمْ حُجِّجْ تَضَلُّ عَنِ الْهُدَى وَتَجُورُ
وَهُنَّ كَأَنِّيَةِ الزُّجَاجِ تَصَادَمَتْ فَهَوَتْ وَكُلُّ كَاسِرٍ مَكْسُورُ

وكنت في الحياة الدنيا لا أدريًا،^{٥٦} وكنت أرى أن كل شيء ثمة فيه عنصر من الحق وعنصر من الباطل، وجانب من الخير وجانب من الشر، ومسحة من جمال الصدق وشية من قبح الكذب،^{٥٧} ورأيت العالم شرقًا بالشرور جياشًا بالآثام^{٥٨} مذ هبط أبونا آدم من الجنة، وقتل قابيلُ هابيلَ، إلى هذا الحين، ولم تصلح على مر الزمان حاله، وربما زاد فسادًا وجُن ضلاله، ولم يُفلح فيه إرشاد الأنبياء ولا حكمة الحكماء ولا وعظ الواعظين ولا نصح الناصحين:

كَمْ وَعَظَ الْوَاعِظُونَ مِنَّا وَقَامَ فِي الْأَرْضِ أَنْبِيَاءُ
فَانصَرَفُوا وَالْبَلَاءُ بَاقٍ وَلَمْ يَزُلْ دَاوُنَا الْعِيَاءُ^{٥٩}
حُكْمُ جَرَى لِلْمَلِيكِ فِينَا وَنَحْنُ فِي الْأَصْلِ أَعْبِيَاءُ

* * *

إِذَا كَانَ عِلْمُ النَّاسِ لَيْسَ بِنَافِعٍ وَلَا نَافِعَ فَالْخُسْرُ لِلْعُلَمَاءِ
قَضَى اللَّهُ فِينَا بِالَّذِي هُوَ كَائِنٌ فَتَمَّ وَضَاعَتْ حِكْمَةُ الْحُكَمَاءِ

ومن جراء ذلك كله كانت خطتي في العاجلة إنما هو غدو لمعاد، أو إصلاح لمعاش، أو فكر أقف به على ما يصلحني مما يفسدني، أو لذة أستعين بها على الحالات الثلاث، وكنت أشبه بما وصف به ابن المعتز نفسه، إذ يقول:

قَلِيلُ هُمُومِ الْقَلْبِ إِلَّا لِلذَّةِ يُنَعَّمُ نَفْسًا آذَنْتْ بِالتَّنْقُلِ
فَإِنْ تَطَلَّبَهُ تَقْتَنِضُهُ بِحَانَةِ وَإِلَّا بِبُسْتَانَ وَكَرْمٍ مُظَلَّلِ
وَلَسْتَ تَرَاهُ سَائِلًا عَنْ خَلِيفَةِ وَلَا قَائِلًا: مَنْ يَعْزِلُونَ وَمَنْ يَلِي
وَلَا صَائِحًا كَالْعَيْرِ^{٦٠} فِي يَوْمِ لَذَّةِ يُنَاطِرُ فِي تَفْضِيلِ عُثْمَانَ أَوْ عَلِي

وَلَكِنَّهُ فِيمَا عَنَاهُ وَسَرَّهُ وَعَنْ غَيْرِ مَا يَعْنِيهِ فَهُوَ بِمَعَزَلٍ

ثم قلت: ولكني سائلكم بادئ ذي بدء^{٦١} عن هذا الوثام، الذي أرى بين مصطفى كامل والأستاذ الإمام، بعد أن يبس الثرى بينهما في دار المحنة،^{٦٢} قال الأستاذ الإمام: ألا تعلم أنه متى يدخل أهل الجنة الجنة يمسح الله ما بهم بعضهم من بعض، فلا يبقى في صدر أحد حسيكة على أحد ولا ضغن ولا إحن،^{٦٣} ويعود ما بينهم مشرقاً مثرياً موقناً، وهل نسيت قول الله جل شأنه يصف أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾؟ قلت — والشيء يذكر بالشيء — ولماذا مُني العالم في العاجلة بالخلاف والشقاق، وعلام كل هاتيكم الأحقاد والحزازات، والشرور والإساءات، والمصائب والآفات. قال الأستاذ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ قال عبده الحامولي: ولم لا يكون الاختلاف في الحياة الدنيا بين الأفراد والجماعات إنما يقصد به إلى معنى نبيل حلو جميل، ما منه بدأ! ألسنا قد نشئنا كأنغام الموسيقى، هي وإن اختلفت غير أن مجموعها يؤلف من هذا الاختلاف نغماً موسيقياً منسجماً بديعاً يطرب السمع ويملك على المرء مشاعره؟ قال الشيخ حسن الطويل: هذا الخلاف يرجع إلى الحكمة البالغة في إيجاد الخير والشر. قال أحمد فتحي زغلول: ويرجع إلى طبيعة البشر. قال محمود سامي البارودي: تلك الطبيعة التي خلقها الله من صلصال من حمأ مسنون،^{٦٤} والله عليُّ بنُ العباس إذ يقول:

اعْلَمْ بِأَنَّ النَّاسَ مِنْ طِينَةٍ يَصْدُقُ فِي النَّبْلِ لَهَا النَّالِبُ^{٦٥}
لَوْلَا عِلَاجُ النَّاسِ أَخْلَافُهُمْ إِذَنْ لَفَاحَ الْحَمَاءِ اللَّازِبُ^{٦٦}

وقال إبراهيم الموليحي: أما مرجع كل المصائب والآلام التي يعانيتها العالم في الدنيا فهو تلك الفعلة البارحة^{٦٧} التي فعل أبونا آدم في الجنة بعد أن خدعه إبليس خدعة الصبي عن اللبن، وهنا قال إمام العبد وهو يضحك كما كان في الدنيا: كله من أكلة التين!^{٦٨}

فَيَا لِكَ أَكَلَةٌ مَا زَالَ مِنْهَا عَلَيْنَا نَقْمَةٌ وَعَلَيْهِ عَارُ^{٦٩}

واستمر المويلحي في حديثه قال: فكأن ما يكابده الناس في دار الهموم والأحزان تكفير لتلك الفعلية، وكأن الدنيا لذلك بيمارستان مجرمين^{٧٠} ... قال الأستاذ الإمام: وماذا كانت تكون الحياة لو أن كل شيء فيها كان طبيًا وكانت خالصة لا يشوبها شوب من الأكدار! إنها تكون في هذه الحالة أشبه بحلبة السباق والمتسابقون واحد ليس معه من يسابقه، وإنها لحكمة بالغة تلك الشدائد والأهوال التي يلاقها الناس في الخسارة، إذ لولاها لما كان للحياة معنى، وكما أنه لولا ضغط الهواء على جسم الإنسان لانصدع وتمزق، كذلك الحال لو يعرى الناس من الشدائد، ويصبحون موفقين في كل ما يعالجون، لا جرم أنهم يصيرون إلى الخرق والطيش والحماسة، وقد يعرفون الخبال والجنون، وحالهم في ذلك تشبه سفينة تسير في خضم عجاج، مغتلم الأمواج دون أن يكون بها صابورة،^{٧١} أو ما يعني غناءها، لا غرو أن يُجن جنونها خفة وطيشًا ... قال حفني ناصف: وبضدها تتميز الأشياء، فلو لم يكن ثمة ألم وترح، لما طعم بنو الدنيا اللذذة والفرح:

وَالْحَادِثَاتُ وَإِنْ أَصَابَكَ بُؤْسُهَا فَهُوَ الَّذِي أَنْبَأَكَ كَيْفَ نَعِيمِهَا

على أن للأحزان أثرًا صالحًا مُحسًا في صقل النفوس وجلاء صدائها، وإشباع العقول ورجحانها، وتهذيب الأخلاق واتزانها، مثلها في ذلك مثل بوتقة الصائغ وكيره، يبقيان على الذهب المحض، وينفيان الخبث والرئق،^{٧٢} وألم تر إلى الفحم متى ضُغط صار ماسًا، وإلى الصفر المجهود كيف يتول ذهبًا زللاً بعد إذ كان نحاسًا:^{٧٣}

لَقَدْ هَدَبْتُكَ الْحَادِثَاتُ وَرُبَّمَا صَفَا الذَّهَبُ الْإِبْرِيْزُ قَبْلَكَ بِالسَّبْكِ

على أن ثمة من الفضائل ما لا يثير دفائنه، ويظهر مضمرة، وينثر كنانته، سوى النوازل والآلام، كالنار يوربها القدح، والطيب يذيعه السحق، ومن هنا كانت هذه الآية العبقرية الحكيمة الخالدة: إن الله لا يحب الفرحين، ومثلها توأمتها كلمة السيد المسيح: طوبى للمحزونين.

حدّث الأديب الثقة قال:

وهنا أمكنتني الفرصة، فما كذبت أن اهتبلتها،^{٧٤} فقلت: أما والأمر كما تقولون، والشر والخصام لا مندوحة عنهما في الخاسرة، والخير والسلام لا يكونان إلا في الآخرة، فقد تركت الخلاف السياسي بين المصريين^{٧٥} وقد بلغ أشده، وجاوز حده، فقد تفرقت كلمة القوم بعد أن نزغ الشيطان بينهم،^{٧٦} وتمشت فيهم حُمياً الضغائن والإحن،^{٧٧} وذهب الخُلف بينهم كل مذهب، حتى كادت ريحهم تذهب،^{٧٨} فتهانف بهم الغاصب،^{٧٩} واتخذهم سُخْرِيًّا، وفغر فاه طماعية فيهم، ونشر أذنيه بعد أن ضرب على أيديهم،^{٨٠} والقوم ماضون على غلوائهم،^{٨١} متدفقون في طغيانهم، وأنت تعلم أن الإحن،^{٨٢} تجر المحن، ومن ثم رفع البلد، في كبد،^{٨٣} وديس برلمان، وسُلخ منه سودانه، وعُطلت المرافق، واعوجت الخلائق، والتأتأ^{٨٤} على القوم الأمر، وانتشر الرأي وابدع، وبقيت الأمة في داهية إده،^{٨٥} ولقيت من هذا الأمر كل شدة، وبالحرى التوت الحال وتصعبت، بعد أن لانت وتسهلت، وبعد أن ذلت غصونها، وتدانت قطوفها، ولما^{٨٦} وكان قد ... بفضل تلك الثورة المباركة والاتحاد المقدس، الذي تم بين رجالات مصر ...^{٨٧} أولئك الزعماء الذين حفت بهم ملائكة الخير، وطُردت من ساحات صدورهم شياطين الشر، واصطُلمت من أحشائهم جرائم الشقاق،^{٨٨} فأصبحت سُوحهم فراديس تغص بالملائكة، لا يصدر عنها إلا كل ما هو خير، وكل ما هو جميل:

صَوْتُ الشُّعُوبِ مِنَ الرَّئِيسِ مُجْمَعًا فَإِذَا تَفَرَّقَ كَانَ صَوْتُ نُبَاحِ

ولما انتهيت إلى هذا الموضوع، قال مصطفى كامل: هلاً فصّلت ما أجملت! فما كان مني إلا أن فصلت وأكملت، وشرحت أطوار المسألة المصرية، وموقف المصريين حيالها في ثماني سنوات تبتدئ من سنة ١٩١٩ وتنتهي سنة ١٩٢٧ لميلاد السيد المسيح صلوات الله عليه، فهُشّ الجماعة أيما دهش، وأطرقوا أسفاً واكتئاباً يشبه اكتئاب أهل الدنيا وليس به، والوصف يقصر عنه:

لَحَاهَا اللُّهُ أَنْبَاءً تَوَالَتْ عَلَى سَمْعِ الْوَلِيِّ بِمَا يَشُقُّ
تَكَادُ لِرُوعَةِ الْأَحْدَاثِ فِيهَا تُخَالُ مِنَ الْخُرَافَةِ وَهِيَ صِدْقُ

وَألا دريت أن مَنْ استأثر الله بهم، وانتقلوا إلى جوار ربهم، يسرون ويساءون بكل ما يعمل أهل الدنيا ممن يمت إليهم بسبب واصل؟ فإذا كان لك صديق، أو شقيق، أو

أب شفيق، أو أم رعوم، أو ابن بار، أو مواطن تشنيه عليك عاطفة الجوار، ثم سبقوك إلى الباقية، وأنت لا تزال ترتع في الفانية، فلتعلمن أن سيرتك تؤثر فيهم، وسلوكك يرد عليهم: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فلا تخزوا أيها الناس موتاكم، بقبح ما يأتيهم من مأتاكم ...

قال الأديب: وبعد أن سكت الجماعة شيئاً، سكوت سخط، لا سكوت رضا، قال الشيخ محمد عبده: أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن معنى السياسة، ومن كل حرف يُلفظ من كلمة السياسة، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يُجن أو يعقل في السياسة، ومن ساس ويسوس، وسائس ومسوس.

مصطفى كامل: وأعوذ بالله من الرئاسة، وحب الرئاسة، فهي أصل البلاء، في عالم

الفناء:

بَلَاءُ النَّاسِ مَذْكَانُوا إِلَى أَنْ تَنْهَضَ السَّاعَةُ
طِلَابُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَحُبُّ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ

محمد فريد: نعم، وكل ما تلقاه الشعوب، من الآلاقي^{٨٩} والكروب، فمآتاته^{٩٠} ذوو الرئاسة والسلطان ومن لف لفهم،^{٩١} وبخاصة في الشرق وبالأخص في مصر، فهم — كما يرى — يغمطون الشعوب،^{٩٢} ويستتهزون بها، ولا يقدرونها حق قدرها، برغم أنهم ليسوا إلا خدامها، أقامتهم لإنفاذ مشيئتها، والقومة على مصالحها وخفارتها، فإذا هم قصرُوا وانحرفوا عن الجادة كانوا غير أهل لما أُسند إليهم، وبالتالي استحقوا الطرد والتكيل بهم والتمرد عليهم. على أن الشعوب قد تملئ للظلمة من حكامها، وترخي لهم الطول،^{٩٣} ولكنها إذا قالت رددت قالها الأقدار، وإذا استغضبت كان غضبها الحديد والنار:

إِنْ مَلَكَتِ النَّفُوسَ فَابِغِ رِضَاَهَا فَلَهَا ثَوْرَةٌ وَفِيهَا مَضَاءُ
يَسْكُنُ الْوَحْشُ لِلْوُثُوبِ مِنَ الْأَسْرِ رِ كَيْفَ الْخَلَائِقُ الْعُقْلَاءُ

* * *

ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ وَاسْتَجَارُوا كَيْدَهَا وَعَدُوا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أَجْرَاؤُهَا

* * *

تَخَذْتُمْ دِرْعًا وَتُرْسًا لِتَدْفَعُوا نِبَالَ الْعِدَا عَنِّي فَكُنْتُمْ نِصَالَهَا

* * *

كَمُتِّقٍ لَفَحَ نَارٍ يَسْتَعِدُّ لَهُ بِالْجَهْلِ دِرْعَيْنِ مِنْ قَارٍ وَكَبِيرِيتِ

إبراهيم المويحي: إن الرياسة في الأعم الأغلب، تحيل طباع الناس، وإنها لمفسدة للأخلاق أي مفسدة، فبينما ترى الرجل قبل الرياسة نبيل النفس، سري الأخلاق، محمود الشمائل، عفيف الإزار، خفيفًا من الأوزار،^{٩٤} مؤدماً مبشراً إدام قومه،^{٩٥} قد تتسعر جوانبه حماسة وطنية، وتطير برأسه نعمةً قوميةً،^{٩٦} إذا به بعد أن تأتيه الرئاسة وقد انقلب سوء منقلب، فنضا عنه ثوب التقى ولبس لقومه جلد النمر، وقلب لهم — كما يقولون — ظهر المجن،^{٩٧} وأجذب قلبه،^{٩٨} وصلدت أخلاقه،^{٩٩} وبلد إحساسه،^{١٠٠} وبردت عواطفه، ولبس أذنيه،^{١٠١} وأخذ يعثر في سيره عثرات يدمى منها الأظل،^{١٠٢} ويدحض دحضات تخرجه إلى سبيل من ضل،^{١٠٣} فكأن الرئاسة «معمودية» إبليس،^{١٠٤} من عمد بها فصار رئيساً، انقلب شيطاناً نجيساً، وآض صلاً في مسلخ إنسان،^{١٠٥} وحرباء ذا أشكال وألوان.^{١٠٦}

كَأَبِي بَرَأَقَشَ كُلَّ لَوْ نِ لَوْنُهُ يَتَخَيَّلُ^{١٠٧}

كان عبد الملك بن مروان يُسمى حمامة المسجد، للزومه المسجد الحرام، فلما أتاه الخبر بخلافته كان المصحف في حجره فوضعه، وقال: «هذا فراق بيني وبينك.» وقد قال يوماً: «إني كنت أخرج أن أطأ أنملة، والآن يكتب الحجاج إلي في قتل فتام^{١٠٨} من الناس فما أحفل بذلك.» وقال له الزهري يوماً: بلغني أنك شربت الطلاء،^{١٠٩} فقال: إي — والله — والدماء. ومما يُؤثر عنه قوله: عجبت للسلطان كيف يحسن، وإذا أساء وجد من يزيه ويمدحه! ... وإن في ذلك لعبرة لمن اعتبر.

أحمد فتحى زغلول: ومما ابتليت به مصر على الخصوص في رؤسائها أن أكثرهم ليس بينهم وبين المصريين أصرة وطن، فجلهم دخيل ينمي إلى أصل غير مصري، فمنهم عبيثة من الأقوام ولويثة، ما يُعرف لهم مضرب عسلة،^{١١٠} ومنهم من قد ضربت فيهم نساؤهم بعرق ذي أشب،^{١١١} فإذا هم تولوا أمر مصر تداركتهم أعراق سوء، ونزت

قلوبهم إلى إيذائها وكانوا حربًا للمصريين^{١١٢} وعاونًا للغاصب عليهم. ولقد خالطت في العاجلة كل جالة من الجالات^{١١٣} في مصر على تنوعهم وتعددتهم فوجدتهم جميعًا، حتى المسلمين منهم، حتى أحط الطوائف — إلا من طاب غرسه، وكرمت نفسه — يحملون الحقد والاحتقار معًا للمصريين، برغم أنهم يتقبلون في نعمائهم، وهذا من غريب طبائع البشر؛ إذ لست أدري لذلك سببًا سوى كرم المصريين، وأن الكرام مشاغل السفهاء:

وَأَنِّي شَقِيٌّ بِاللَّئَامِ وَلَا تَرَى شَقِيًّا بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ الشَّمَائِلِ

حفني ناصف: نعم، ومساكين هم الأخيار، وويل لهم من الأشرار، فالأشرار لا يعجبون إلا بالأشرار ولا يحفلون بالأخيار، بلى! وتراهم مع ذلك مولعين بهم وبإيذائهم، والأصل في هذا أن حال الأخيار الكرام أهل الوفاء والمروءة والشهامة ناصعة نيرة واضحة وضوح النهار المستطير في رونق الضحى، أما الأشرار اللئام فشأنهم الغموض واللبسة^{١١٤} والإبهام، شأن الليل ذي الظلم والدجى، والمجهول أبدًا مخوف مهوب مرهوب، ومن ثم نرى الناس لا يخافون إلا من كان هذا شأنه، فضلًا أنهم يكبرونه وبيقون على وده، ولا جرم أن الشر لا يدفعه إلا الشر، والحديد بالحديد يفلح،^{١١٥} والشهرة بالملاينة والخير شر من الاشتهار بالغلظة والشر؛ لأن من عرف بأخي الشر اجترأ عليه الناس، ومن عرف بأخي الخير هابه الناس وتجنبوه،^{١١٦} ورحمة الله على الفاروق إذ قيل له: فلان لا يعرف الشر ... فقال: ذاك أوقع له فيه ... أو ما هذا معناه، وبعد: فإن أكثر هذا الناس لئيم قد طُبع على ضرائب من اللؤم، ومن ثم كان جديرًا بالمرء يهمة الاحتفاظ بنفسه ويعرضه^{١١٧} ودينه وماله وبلاده أن يمزج كرمه باللؤم، وخيره بالشر، وعقله بالجهل، ويضع كل شيء موضعه، ويقر الأمور في نصابها، وإلا استأسد عليه الناس وتذاءبوا، وطمعوا فيه وتكالبوا:

مَنْ ظَلَمَ النَّاسَ تَحَامَوْا ظُلْمَهُ وَعَزَّ عَنْهُمْ جَانِبَاهُ وَاحْتَمَى
وَهُمْ لِمَنْ لَانَ لَهُمْ جَانِبُهُ أَظْلَمَ مِنْ حَيَاتِ أَنْبَاثِ السَّفَا^{١١٨}

قال الأديب: فقلت: ومن العجب العجاب أن الكلمة الآن هي كلمة الشعوب، فقد أصبحت حكومات العالم كلها أو جلها شورى، وصار لها مجالس نيابية بيدها الحل والعقد والهيمنة على الملوك والحاكمين، وجاء دور مصر بأخيرة فأصبح لها «برلمان» لم يظفر به المصريون إلا بعد أن خُصبت أيديهم بالدماء، وبذلوا في سبيله حر المال والذماء،^{١١٩} وعلى الرغم من ذلك ومن أن المصريين، وهم في الروابي من الشعوب^{١٢٠} وأعرقهم في الحضارة وأسبقهم إلى المجد والسؤدد، وأرسخهم قدمًا في العلم والعرفان، ودينهم دين الحرية الصريحة، والمدنية الصحيحة:

قَوْمِي اسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّهْرِ فَتَى وَمَشَوْا فَوْقَ رُؤُوسِ الحِقَبِ
عَمَّمُوا بِالشَّمْسِ هَامَاتِهِمُو وَبَنَوْا أَبْيَاتَهُمْ بِالشُّهْبِ
قَدْ قَبَسْنَا الْمُلْكَ عَنْ خَيْرِ أَبٍ وَقَبَسْنَا الدِّينَ عَنْ خَيْرِ نَبِيِّ

فكانوا لذلك أحق من غيرهم بالبرلمانات، وبما هو أكثر من البرلمانات، ولكن على الرغم من ذلك كله، ومن أن برلمانهم لم يتعرع بعد، ولم يشب عن الطوق، مال عليه هؤلاء الرؤساء، أو هؤلاء الأعداء، وعبثوا به عبث النكباء بالعود،^{١٢١} وتمادوا في طغيانهم يعمهون، فانعكست بذلك الآية، وأسلمتنا البداة للنهاية، وانقلب المهيمن مهيمنًا عليه، وكأن البرلمان لعبة يلعب بها لا حكم يُحتكم إليه، ولا ذنب للبرلمان في هذا سوى أنه أوشك أن يقوم بمهمته خير قيام، وأن يُحاسب الحساب العسير هؤلاء الحكام:

إِذَا مَحَاسِنِي اللَّائِي أُدِلُّ بِهَا كَانَتْ ذُنُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أُعْتَذِرُ؟

إبراهيم المويحي: إذن لا بد من أن الغاصب يعضد هؤلاء الرؤساء، ويحوطهم ويغريهم بهذه الأمة السيئة الحظ:

وَكَيْفَ يَخْشَى صَوْلَةَ الذُّئْبِ مَنْ قَدْ جَعَلَ السَّبْعَ لَهُ عُدَّةً

محمد فريد: بيد أن هؤلاء الرؤساء لو كانوا من الطراز الأول ذوي الشرف والنبيل والإباء، والعزة القعساء،^{١٢٢} والعيص الأشب، والفعال الموروث والمكتسب،^{١٢٣} لا تلتين قناتهم لغامز،^{١٢٤} ولا تنهضم نفوسهم لظالم،^{١٢٥} ولا تتعاطمهم جبورة محتل،^{١٢٦} أو كانوا على الأقل ممن يُكرمون أنفسهم ويتجافون بها عن مواطن الهوان، أو كانوا

مخلصين لهذه الأمة أبهين لها، لَمَّا بالوا — وربك — بالغاصب، وَلَمْضُوا قَدَمًا فِيمَا فِيهِ صلاح بلادهم مهما لاقوا في هذا السبيل، ولو أن كل رئيس كان هكذا لرجع الغاصب أدراجه، وتأخر آخرًا في سبيل طماعيته، ولكن أكثر الرؤساء في مصر — إلا من هدى ربك — سواسية كأسنان الحمار، أو كحماري العبادي، وقد قيل له: أي حماريك شر؟ فقال: هذا ثم هذا: ١٢٧

فَكَأَنَّمَا كَشَفْتَ عَنْ سَوَاتِبِهَا	خَلَقٌ إِذَا حَدَّثَتْ عَنْ أَخْلَاقِهَا
غَايَاتِهَا وَتَنَاهَبُوا حَلَبَاتِهَا	مُتْرَاهِنِينَ عَلَى الدَّيْنِيَّةِ أَحْرَزُوا
لُؤْمًا وَزَادَتْ دِقَّةً مِنْ ذَاتِهَا	وَرَثَتْ نَفُوسَهُمْ حَبَائِثَ أَصْلِهَا
صُمٌّ يَصِيحُ اللُّؤْمُ فِي جَنَابَاتِهَا	وَمُلْتَمِسِينَ عَلَى النَّفَاقِ بِأُوجِهِهَا

ومن هنا كان طمع الغاصب في هذه الأمة، وتهالكه عليها.

قال الأديب: وهنا قال الشيخ محمد عبده: وثمة شيء آخر يكشف لك سرًا من أسرار فشل هذه الأمة وذهاب ريحها؛ إذ تنزوا إلى الخلاف والنزاع والشقاق، ذلك أن جمهرة الشرقيين وخصيصى المسلمين منهم، حديدو العواطف مشبوبو المشاعر، فإذا ما أحبوا أغرقوا في الحب حتى يبلغوا النهاية، وإذا ما أبغضوا أوفوا في البغض على الغاية، لا يلوذون في تصاريفهم إلى ركن من الحجا ركين، ولا يعتصمون لدى الحفيظة بعاصم من الخلق والدين، ليسوا إذا عد الدهاة في العير ولا في النفير،^{١٢٨} فكأن حلومهم نفخت فيها الأعاصير، يعوزهم ضبط النفس إذا صرح الشر، وترك الهوى إذا أمكن الأمر، بينما الأغيار وخصيه الشعوب الآرية، ولا سيما القادة وذوو الرئاسة وأولو الأمر منهم والمتصدون لسياسة الأمم، يحكمون عقولهم على قلوبهم، ويؤثرون مرافقهم على أهوائهم، ذوو رأي وتدبير وبصر بأعقاب الأمور، وأناة لا يطير الجهل في جنباتها، ولا ينزل الطيش بساحة من ساحاتها، وبذا بذوا الشرقيين، وأضحى هؤلاء لهم مسودين، ولو شاء الشرقيون أن يداركوا أمورهم، لداووا بكل الأثافي ألبابهم:

لَوْلَا الْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيِّعٍ أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ

* * *

وَإِذَا الرِّيَاسَةُ لَمْ تَعُنْ بِسِيَاسَتِهِ عَقْلِيَّةَ خَطِيءِ الصَّوَابِ السَّائِسُ

ثم قال الشيخ محمد عبده: وهذا على الرغم من أن الإسلام الذي يدينون به، ويزعمون أنهم مستمسكون بأدبه، كثيراً ما نهى عن اتباع الهوى، وحض على الاستمسك بالعقل والنهْي، فقد اكتظ كتاب الله وأحاديث المصطفى — صلوات الله عليه — وما أثر عن السلف الصالح، من التنويه بالعقل والإشادة بذكره، والحض على اللجوء إليه، والاعتماد في سائر الأمور عليه، والكياسة، وحسن السياسة، والاعتصام بالتقوى، بما لا يُعد ولا يُحصى، وحسبهم قول الله جل شأنه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، والهوى كل ما تهواه النفس وتصبو إليه مما لا يتفق والعقل والنهْي ... وقال — والله المثل الأعلى — يعرِّ قومًا ويشنع عليهم ويسفههم ويصغي إناءهم: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ ويقول سبحانه في مواضع من كتابه الكريم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ وقال: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، ﴿أَدْفَعِ بِنَاتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، ﴿حُذِرِ الْعَفْوَ وَأُمِرَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. إلى كثير من هذه الآيات الكريمة التي يزخر بها كتاب الله ... وكان المصطفى — صلوات الله عليه — إذا بلغه عن إنسان عبادة قال: كيف عقله؟ فإن قالوا عاقل، قال: ما أخلقه أن يبلغ، وإن قالوا: ليس بعاقل قال: ما أخلقه أن لا يبلغ. وقال: مَنْ لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه ... وقال: اعص هواك والنساء وأطع من شئت. وقال عليه السلام: ألا أخبركم بأحبكم إليَّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً،^{١٣٠} الذين يألفون ويؤلفون، ألا أخبركم بأبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة: الثرثارون المتفيهقون ... وقال في معنى القصد في الأمر، وأن لا يغلو المرء في الحب والبغض: أحب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.

ولم لا يقول هذا والكثير الكثير من أمثاله مَنْ أدبه ربُّه فأحسن تأديبه؟ ويقول له وهو أصدق القائلين: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ولو أن المسلمين تدارسوا سيرة الرسول ووقفوا على شمائله الكريمة وأخذوا إخذه، وحذوا حذوه، واهتدوا بهدأيته، وفظنوا إلى مرامي سياسته، لكان منهم أكبر ساسة، ولسادوا العالم وناسه، كما كان من خريجيه وتلاميذه الصديق والفاروق وذو النورين

وأبي تراب، وابن أبي سفيان^{١٣١} وسائر صحابته، وتابعيهم من المستنيرين بسنته، أولئك الذين أنعم الله عليهم، ونشئوا في حضانة صفيه وخيرته من خلقه، رضوان الله عليهم أجمعين.

قال الأديب الثقة: ولقد أنبهتكم غير مرة إلى أن لغة أهل الجنة، غير لغة دار المحنة، ومن ثم كان كل ما أعزوه في هذا الحديث من القول إلى قائله من أهل دار السلام أشبه بالمنقول من لغة إلى لغة، ولكن لا كالحسناء وخيالها في المرأة، لا، ولا من قبيل المترجم من لغة إلى لغة تضارعها أو تقاربها رفعة وسناء، أو أن المترجم يداني القائل الأصلي بلاغة وأداء، ولكن إذا كان لا بد من التشبيه فأشبهه شيء بذلك — وللجنة ومن فيها المثل الأعلى — أن تعمد إلى رجل من العامة صلد الذهن، أغلف القلب، ران عليه الغباء^{١٣٢} فتسمعه إحدى أوابد شوقي^{١٣٣} وتقفه على مراميها، ثم تستعيده ما سمع وانظر ما أنت سامع ... ولقد أذكرني هذا التشبيه ما كان بين المعتمد بن عباد، أحد ملوك الطوائف بالأندلس، وبين يوسف بن تاشفين البربري ملك مراکش، وذلك أن ابن عباد أرسل إلى ابن تاشفين رسالة تمثل فيها بيتي ابن زيدون:

بِنْتُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَاقِينَا
حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَغَدَّتْ سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لِيَالِينَا

فلما قرئ عليه هذان البيتان قال للقارئ: يطلب منا جوارى سودًا وبيضًا! قال القارئ: لا يا مولاي، ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارًا؛ لأن ليالي السرور بيض، فعاد نهاره ببعده ليلاً؛ لأن ليالي الحزن ليالٍ سودة ... فقال: والله جيد، اكتب له في جوابه: إن دموعنا تجري عليه ورءوسنا توجعنا من بعده ... وكذلك شأنني في وصف الجنة وكلام أهلها، بعد هبوطي إلى الدنيا وتمرغي فيها، وما حيلتي وقد كانت مرآة ذهني وأنا في الجنة، أسمع كلام أولئك الجلة، كأنها الوديلة المستوية صفاء وصدقًا وبلاغًا،^{١٣٤} فلما غادرتها وظننت أنني سأقصر لذلك عليك أحسن القصص، وأروي لك ما سمعت كما هو دون أن أخرج منه حرفًا، أو أن أحييف عليه حيفًا،^{١٣٥} رأيت هذه المرأة وقد أضت مقعرة حدباء، فأني لك بعد هذا إلا أن تسمع هذه الأحاديث محرفة شوهاء، ولا غرو فليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، أما المسميات فيبينها من التفاوت ما بين الأرض والسماء! بيد أنه — كما قلنا — إن لم يكن صداء^{١٣٦} فماء، وإن لم يكن خمر

فخل، وإن لم يصبها وابل فطل، ومن لم يجد ماء تيمماً، فتفتن دائماً لذلك ولا تخله قط من بالك.

هوامش

- (١) جالاه: جانباه.
- (٢) عين: جمع عيناء، واسعة العين عظيمة سوادها، ومنه قيل لبقر الوحش: عين، صفة غالبية. ولؤلؤ مكنون: مصون مستور من الشمس وغيرها.
- (٣) الحباب: الحية. والعقاب: طائر من الجوارح معروف. والسجل هنا: الكاتب، أو الرجل، بلغة الحبش.
- (٤) الضحيان: البراق المضيء.
- (٥) الخز: الحرير. والأدكن: المائل لونه إلى السواد.
- (٦) الدمقس: الحرير الأبيض والديباج.
- (٧) الدوقل: خشبة طويلة تشد في وسط السفينة يمد عليها الشراع، وتسميه البحرية: الصاري، واللجين: الفضة.
- (٨) السكان: الدفة.
- (٩) المردي: خشبة تدفع بها السفينة. والنوتي: الملاح.
- (١٠) قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيٌّ مَبْنُوتَةٌ﴾، الزرابي: النبت إذا اصفر واحمر وفيه خضرة، فلما رأوا الألوان في البسط والفرش شبهوها بزرابي النبت، وكذلك العبقري من الثياب والفرش، والزرابي: جمع زربية، والمراد هنا البسط ذو الخمل. والإستبرق: الديباج الغليظ. والنمارق جمع نمرقة: الوسادة يُتَكأ عليها.
- (١١) الجمان هنا: الفضة. والعقيان: الذهب.
- (١٢) الخوافي: ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت، وخوافيها هنا تُقرأ بسكون الياء للسجع.
- (١٣) آذيه: موجه. وجاش: ارتفع.
- (١٤) الأذفر: الذكي الريح.
- (١٥) الرضراض: الحصى الصغار.
- (١٦) حفافاه: جانباه.
- (١٧) زق الطائر الفرخ يزقه: أطعمه بفيه.

- (١٨) ينزو: يثب.
(١٩) مهل: عطف تفسير لرود، تقول منه: أرود في السير: أي أرفق.
(٢٠) النجم من النبات: كل ما نبت على وجه الأرض ونجم على غير ساق. واستأسد النبت: بلغ والتف وقوى.
(٢١) الجميم: النبت الكثير. وجنونه: بلوغه مداه.
(٢٢) استشرف: رفع رأسه وعينه. وأنست: رأيت. والغلوة: قدر رمية سهم على أبعد مدى. والبهرة: الوسط.
(٢٣) التلة بالضم: الجماعة من الناس، وفي التنزيل: ﴿تِلْةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَتِلْةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾.
(٢٤) جماع الثريا: مجتمعاها.
(٢٥) يشتلن: يرفعن. واشتال: بمعنى رفع، قال الراجز:

حَتَّى اشْتَالَ سُهَيْلٌ فِي السَّحَرِ

- (٢٦) العقار: الخمر.
(٢٧) الرضاب: الريق. ورضاب الطل والندى: ما تقطع منه على الشجر. والرضاب: البرد. والطل: المطر الضعيف.
(٢٨) أوحى: أسرع.
(٢٩) يراد: ابتسم.
(٣٠) جنح الليل — بضم الجيم وكسرهما — لغتان: جانبه، وهذان البيتان والذي قبلهما لإمام العبد — رحمة الله عليه.
(٣١) مفلوكًا ومحدودًا ومحارفًا: كلها بمعنى المحروم البائس المقتر عليه في الرزق.
(٣٢) العيش المرمق: الدون اليسير. وعيش رmq: أي يمكس الرmq. والبرض: الشيء القليل. والتبرض: التبلى بالقليل من العيش. وأخرات الإبر: ثقبها.
(٣٣) البيتان لإمام العبد.
(٣٤) الهلع: الجزع. ووهل واستوهل: ضعف وفزع وجبن.
(٣٥) هر الزمان، من هر الكلب: نبح وكشر عن أنيابه.
(٣٦) ضرع إليه: خضع وذل. وعرق العظم: أكل ما عليه من اللحم. وعرقته الخطوب: أخذت منه ونالت. قال:

أَجَارَتْنَا كُلُّ أَمْرٍ سُنَّصِيهِ حَوَادِثُ إِلَّا تَبَيَّرَ الْعِظْمَ تَعْرِقُ

(٣٧) اللأواء: الشدة.

(٣٨) يئودها: يكرثها ويجهدا ويشق عليها. وبوس: مخفف «بؤس»: الفقر وشدة الحاجة والضر وما إليها.

(٣٩) البابة: الوجه.

(٤٠) مستسرة: ما استسر وخفي.

(٤١) الأخادع: جمع أخدع، وهما أخدعان: عرقان في جانبي العنق قد خفيا وبطنا. واستقامة الأخادع: عبارة عن الإقلاع عن الكبر.

(٤٢) ججاج: جمع ججاج، وهو السيد الكريم.

(٤٣) طم: علا، وغمر. والقرى: مدفع الماء من الربوة إلى الروضة، ومثل هذا المثل: جاء السيل فطم الركي. والركي: الآبار.

(٤٤) الكلفة: حمرة كدرة تملو الوجه، أو النمش. والبرص والبهق: معروفان.

(٤٥) من عيوب السودان أن أكفهم عابسة متشققة، وأطرافهم ليست بناعمة لينة، وكذلك لا يزال الفلح في شفاههم — وهي الشقوق الموجودة في أوساط الشفاه — وكذلك ترى السود متهمة بخبث العرق، فنفى ابن الرومي هذه الصفات عن هذه السوداء.

(٤٦) السمور: حيوان بري يشبه ابن عرس وأكبر منه، ولونه أحمر مائل إلى السواد، يتخذ من جلده فراءً ثمينة، وربما أطلق السمور على جلده. والفراء: بائع الفراء. والدلق: حيوان يقرب من السنور في الحجم، وهو أصفر اللون، بطنه وعنقه مائلان إلى البياض. (٤٧) الغوالي: جمع غالية: أخلاط من الطيب. والسك ضرب من الطيب يُركب من مسك ورامك.

(٤٨) العنق: ضرب من السير وهو اسم من أعنق: أي أسرع.

(٤٩) اليقق: الشديد البياض. والنسق: المنسق، يُقال در نسق وكلام نسق وثغر نسق: أي منتظم.

(٥٠) الفلق: الصبح. وتفري: انشق.

(٥١) الحق ذو سلم وذو نفق: أراد أن الحق يتصرف في جهات، وضرب الصعود والنزول لذلك مثلاً. وحلكته: سواده.

(٥٢) يُقال: وقع القوم في حيص بيص: أي في اختلاط من أمر لا مخرج لهم منه، قال الجوهري: وحيص بيص: اسمان جُعلا واحداً وبُنيا على الفتح، مثل جاري بيت بيت،

وقيل: إنهما اسمان من حيص وبوص جُعلًا واحدًا، وأُخرج البوص على لفظ الحيص ليزدوجا. والحيص الرواغ والتخلف. والبوص: السبق والفرار، ومعناه: كل أمر يتخلف عنه ويفر.

(٥٣) أم دفر: هي الدنيا، وأصل الدفر: النتن خاصة، ويقال: دفرًا دافرًا لما يجيء به فلان: على المبالغة؛ أي نتنًا. ويقال للرجل إذا قبحت أمره: دفرًا دفرًا؛ أي نتنًا. (٥٤) لست منه في شيء ولا أميل إليه.

(٥٥) التبطل: فعل البطالة، وهو اتباع اللهو والجهالة.

(٥٦) اللأدريون: فرقة من الفلاسفة يتوقفون في الحكم على الأشياء ويكثرون من قول «لا أدري»، وهم تابعون في فلسفتهم للفيلسوف اليوناني «بيرون» المولود في «أليس» من يونان سنة ٣٨٤ قبل الميلاد، وأساس فلسفته هو: أن الإنسان متى خرج من ظلمة العدم إلى نور الوجود، وأراد أن يسبر غور خفايا الأشياء المحيطة به من كل جانب، فإنه لا يخلو حاله من أحد أمرين: فإما أن يصدق كل ما يراه ويستنتجه ويعدده حقائق غير قابلة للنقض، وإما أن ينكر كل ذلك ويدعي أن ليس هناك شيء، ولا يخفى أن كلا هذين الأمرين يخرج بنا عن طبيعة الإنسان ويبين فطرته الأصلية. إذن فليس للإنسان إلا خطة الاعتدال، التي من مقتضاها الإجماع عن الحكم على الأشياء (راجع فلسفته في دوائر المعارف والرد عليه في كتب العقائد الإسلامية المطولة).

(٥٧) يُقال: عليه مسحة من جمال ومسحة عتق وكرم: أي شيء منه، ولا يُقال ذلك إلا في المدح، فلا يُقال: عليه مسحة قبح، وقال ذو الرمة:

عَلَى وَجْهِ مَيِّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلَاخَةٍ وَتَحْتَ الثِّيَابِ الْخِزْيُ لَوْ كَانَ بَادِيًا

والشية: من الوشي، يقال وشى الكذب والحديث: صوره، ووشى كلامه: كذب، ثم استُعملت الشية في كل لون يخالف معظم اللون، قال تعالى: ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾، أي ليس فيها لون يخالف سائر لونها.

(٥٨) يُقال شرق الموضوع بأهله: امتلأ فضايق.

(٥٩) يزل: يزول، مضارع زال من الزوال. والداء العياء: الداء الذي لا دواء له.

(٦٠) الحمار.

(٦١) أي قبل كل شيء.

(٦٢) يبس الثرى بينك وبين فلان: إذا تقاطعتما، قال جرير:

فَلَا تَوَسُّوْا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ التَّرَى فَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مُثْرِي

ومن ذا قولهم: ما بيني وبين فلان مثر: أي أنه لم ينقطع.
 (٦٣) يُقَالُ فِي الدَّعَاءِ لِلْمَرِيضِ: مَسَحَ اللهُ عَنْكَ مَا بِكَ: أي أذهب، والحسيكة: الضغن والحدق، والإحن: جمع إحنة، وهي الضغينة والعداوة.
 (٦٤) الصلصال: الطين اليابس. والحمأ: الطين الأسود. والمسنون: المتغير المنتن.
 (٦٥) ثلبه ثلْبًا: عابه وتنقصه.
 (٦٦) الحمأ: الطين الأسود. وطين لازب: يلزق باليد لاشتداده.
 (٦٧) البارحة: الشديدة المؤذية.
 (٦٨) قيل: إن الشجرة التي نُهي آدم عن أن يقربها هي شجرة التين، وقيل: الحنطة، وقيل: الكرمة.
 (٦٩) من كلمة حكيمة للحكيم الفيلسوف الأديب ابن السبل البغدادي المتوفى ببغداد سنة ٤٧٤ هجرية، وإليك هذه الكلمة الجيدة البارعة برقتها:

بَرَبِّكَ أَيُّهَا الْفَلَكَ الْمُدَارُ أَقْصَدُ ذَا الْمَسِيرِ أَمْ اضْطَرَارُ
 مَدَارُكَ قُلْ لَنَا فِي أَيِّ شَيْءٍ فَفِي أَفْهَامِنَا مِنْكَ أَنْبَهَارُ

انبهار: تحير.

وَفِيكَ نَرَى الْفَضَاءَ وَهَلْ فَضَاءٌ سَوَى هَذَا الْفَضَاءِ بِهِ تَدَارُ؟
 وَعِنْدَكَ تَرْفَعُ الْأَرْوَاحُ أَمْ هَلْ مَعَ الْأَجْسَادِ يُدْرِكُهَا الْبَوَارُ

البوار: الهلاك.

وَمَوْجُ ذِي الْمَجْرَةِ أَمْ فِرْنَدُ عَلَى لُجَجِ الدَّرُوعِ لَهُ أَوَارُ

المجرة: هي ما يُرى كأنه بياض معترض في السماء، والفرنند: يقال للسيف ولمائه الذي يجري فيه وطرائقه. والأوار: وهج النار وشدة حر الشمس.

الأديب يركب زورقًا في الجنة

وَفِيكَ الشَّمْسُ رَافِعَةً شُعَاعًا بِأَجْنِحَةٍ قَوَادِمُهَا قِصَارُ

القوادم: أربع ريشات في مقدم الجناح.

وَطَوْقٌ فِي النُّجُومِ مِنَ اللَّيَالِي هَلَالُكَ أَمْ يَدٌ فِيهَا سُورٌ

الطوق: حلي يُجعل في العنق وكل شيء استدار، والسوار — بكسر السين وضمها — جمع أسورة، وهو ما تتحلّى به المرأة في يدها من ذهب وفضة.

وَشُهْبٌ ذِي الخَوَاطِفِ أَمْ ذُبَالٌ عَلَيَّهَا المَرُخُ يُقَدِّحُ والعَفَارُ

الشهب: النجوم السبعة المعروفة بالدراري والتي تنقض بالليل، جمع شهاب، وفي الأصل الشعلة من النار. والخواطف: جمع خاطف، وسميت خواطف من خطف البرق البصر: ذهب به، أو لأنها تخطف الشياطين الذين كانوا يسترقون السمع. والذبال: جمع ذبالة، وهي الفتيلة التي يصبح بها السراج. والمرخ: شجر كثير الوري سريعه، ومنه يكون الزناد الذي يُقتدح به، وكذلك العفار.

وَتَرَصِيعُ نُجُومِكَ أَمْ حَبَابٌ تُوَلَّفُ بَيْنَهُ اللُّجُجُ الغِرَارُ

الترصيع: التركيب، يقال: تاج مرصع بالجواهر، ورصع العقد بالجواهر: نظمه فيه وضم بعضه إلى بعض. وحباب الماء: نفاخاته وفقاقيعه التي تطفو فوقه، أو الطرائق التي في الماء كأنها الوشي.

تُمَدُّ رُقُومُهَا لَيْلًا وَتُطَوَى نَهَارًا مِثْلَ مَا طُوِيَ الإِرَارُ

الرقم في الأصل: الوشي والنقش، والضمير في «رقومها» للنجوم.

تَبَارَى نَمَّ تَحْنُسُ رَاجِعَاتٍ وَتَكْنُسُ مِثْلَ مَا كَنَسَ الصُّورُ

تباري — بحذف إحدى التاءين — أي تتبارى، والمباراة: المجارة والمسابقة. والصوار — بضم الصاد وكسرها: القطيع من البقر. وتحنس: تغيب وتختفي. وكنست البقرة:

دخلت في كناسها إذا اشتد الحر. قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ قال الإمام الزمخشري: الخنس: الرواجع بينا ترى النجم في آخر البرج إذ كرّ راجعاً إلى أوله. والجواري: السيارة. والكنس: الغيب، قيل: هي الدراري الخمسة: بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشتري، تجري مع الشمس والقمر وترجع حتى تختفي تحت ضوء الشمس، فخنوسها رجوعها، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس، وقيل: هي جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل، أي تطلع في أماكنها كالوحش من كنسها.

فَبَيْنَا الشَّرْقُ يَاقِدُهَا صُوعِدًا تَلَقَّاهَا مِنَ الْغَرْبِ انْحِدَارُ

الشرق هنا: الشمس. ويقدمها: يتقدمها، أو تقول: الشرق: المشرق، ويقدمها: يقدمها.

عَلَى ذَا مَا مَضَى وَعَلَيْهِ يَمْضِي طُوالٌ مُنَى وَأَجَالٌ قِصَارُ
وَأَيَّامٌ تُعَرِّقُنَا مُدَاهَا لَهَا أَنْفَاسُنَا أَبَدًا شِفَارُ

المدى: جمع مدية، الشفرة الكبيرة، وعرقته وتعرقته: أخذت اللحم عنه. والشفار: جمع شفرة، السكين أيضاً وحد السيف.

وَدَهْرٌ يَنْتُرُ الْأَعْمَارَ نَتْرًا كَمَا لِلْغُصْنِ بِالْوَرْدِ انْتِبَارُ
وَدُنْيَا كَلَّمَا وَضَعَتْ جَنِينًا غَدَاهُ مِنْ نَوَائِبِهَا طَوَارُ

الطَّوَار: جمع طئر، وهي المرضع.

هِيَ الْعَشَوَاءُ مَا حَبَطَتْ هَشِيمٌ هِيَ الْعَجَمَاءُ مَا جَرَحَتْ جِبَارُ

العشراء: الناقة لا تبصر ما أمامها، ومنه: هو يخبط خبط العشواء. وخبطت: وطئت. وهشيم: مهشوم. والعجماء: البهيمة. وجبار: هدر، يقال: ذهب دمه جباراً: أي لم يؤخذ بثأره.

الأديب يركب زورقًا في الجنة

فَمِنْ يَوْمٍ بِلَا أَمْسٍ لِيَوْمٍ بَغَيْرِ غَدٍ إِلَيْهِ بِنَا يُسَارُ
وَمِنْ نَفْسَيْنِ فِي أَحْذٍ وَرَدٍّ لِرُوحِ الْمَرءِ فِي الْجِسْمِ انْتِشَارُ
وَكَمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَلْفَتْ نَفُوسٌ جُسُومًا عَنْ مَجَائِمِهَا تُطَارُ

مجائِمها: أماكن جثومها.

أَلَمْ تَكُ بِالْجَوَارِحِ أَنْسَاتٍ فَكَمْ بِالْقُرْبِ عَادَ لَهَا نَفَارُ
فَإِنْ يَكُ أَدَمُ أَشَقَى بِنِيهِ بِذَنْبٍ مَا لَهُ مِنْهُ اعْتِدَارُ
وَلَمْ يَنْفَعَهُ بِالْأَسْمَاءِ عِلْمٌ وَمَا نَفَعَ السُّجُودُ وَلَا الْجَوَارُ

يشير بقوله ولم ينفعه بالأسماء علم ... إلخ، إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ إلى آخر الآيات.

فَأُخْرِجَ ثُمَّ أَهْبِطَ ثُمَّ أُوْدَى فَتُرِبُ السَّافِيَاتِ لَهُ شِعَارُ

أودى: مات. والسافيات: الريح تسفي التراب، أي تذرؤه.

فَأَذْرَكَهُ بِعِلْمِ اللَّهِ فِيهِ مِنْ الْكَلِمَاتِ لِلذَّنْبِ اغْتِفَارُ
وَلَكِنْ بَعْدَ غُفْرَانٍ وَعَفْوٍ يُعَيِّرُ مَا تَلَا لَيْلًا نَهَارُ
لَقَدْ بَلَغَ الْعَدُوُّ بِنَا مُنَاهُ وَحَلَّ بِآدَمَ وَبِنَا الصَّغَارُ

الصغار: الهوان.

وَتِهْنًا ضَائِعِينَ كَقَوْمِ مُوسَى وَلَا عِجْلٌ أَضَلَّ وَلَا خُورُ

الخوار: صوت البقر.

فَيَا لِكَ أَلَكَّةَ

... البيت

نُعَاقِبُ فِي الظُّهُورِ وَمَا وُلِدْنَا وَيُذْبِحُ فِي حَشَا الأُمِّ الحِوَارُ

الحوار: ولد الناقة قبل أن يفصل عنها.

وَنَنْتَظِرُ الرِّزَايَا وَالبَلَايَا وَنَخْرُجُ كَارِهِينَ كَمَا دَخَلْنَا
خُرُوجَ الضَّبِّ أَحْوَجَهُ الوَجَارُ

الوجار: الحجر.

فَمَادَا الأَمْتِنَانُ عَلَى وُجُودِ لِغَيْرِ المُوَجِدِينَ بِهِ الخِيَارِ
وَكَانَتْ أَنْعَمًا لَوْ أَنَّ كَوْنًا نُخَيِّرُ قَبْلَهُ أَوْ نُسْتَشَارُ
أَهَذَا الدَّاءُ لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ وَهَذَا الكَسْرُ لَيْسَ لَهُ أَنْجِبَارُ
تَحْيِرَ فِيهِ كُلُّ دَقِيقٍ فَهَمَّ وَلَيْسَ لِعُمُقِ جَرْحِهِمُ أَنْسِبَارُ

سبر الجرح: نظر مقداره وقاسه ليعرف غوره.

إِذَا التَّكْوِيرُ غَالِ الشَّمْسِ عَنَّا وَغَالِ كَوَاكِبِ اللَّيْلِ انْتِشَارُ

كورت الشمس: غورت أو اضمحلت وذهبت، أو جمع ضوءها ولف كما تلف العمامة. وغاله الشيء: أهلكه.

وَبَدَّلْنَا بِهَذِي الأَرْضِ أَرْضًا وَطَوَّحَ بِالسَّمَاوَاتِ انْفِطَارُ

أصل الفطر: الشق، قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، أي: انشقت، وقال الشاعر:

شَقَقَتِ القَلْبَ ثُمَّ ذَرَرَتْ فِيهِ هَوَاكِ فَلَيمَ فَالْتَامَ الفُطُورُ

وطوح به: ذهب به ههنا وههنا، يريد بهذا وبما بعده: يوم البعث.

وَأَذْهَلَتِ المَرَاضِعَ عَن بَنِيهَا لِحَيْرَتِهَا وَعُطَلَّتِ العِشَارُ

الأديب يركب زورقًا في الجنة

العشار من الأبل: التي قد أتى على حملها عشرة أشهر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال الفراء: لقح الأبل: عطلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم ولا يعطلها أهلها إلا في حال القيامة.

وَعَشَى الْبَدْرَ مِنْ فَرَقٍ وَدَعِرٍ حُسُوفٌ لِلتَّوَعُّدِ لَا سِرَارُ

السرار: الليلة التي يستسر فيها القمر؛ أي يختفي.

وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكُنَّ كُتُبًا مَهِيلَاتٍ وَسُجِّرَتِ الْبِحَارُ

سيرت: أي على وجه الأرض. والكتب: جمع كتيب، قال تعالى: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كُتُبًا مَهِيلًا﴾ الكتيب: الرمل. والمهيل: المنتور بعضه فوق بعض. وسُجرت قيل: فجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحرًا واحدًا، وقيل: ملئت نيرانًا تضطرم لتعذيب أهل النار، وقيل: ذهب ماؤها حتى لا يبقى فيها قطرة.

فَأَيْنَ ثَبَاتُ ذِي الْأَلْبَابِ مِنَّا
وَأَيْنَ عُقُولُ ذِي الْأَفْهَامِ مِمَّا
وَأَيْنَ يَغِيبُ لُبٌّ كَانَ فِيْنَا
وَمَا أَرْضُ عَصْتَهُ وَلَا سَمَاءُ
وَقَدْ وَافَتْهُ طَائِعَةٌ وَكَانَتْ
وَأَيْنَ مَعَ الرَّجُومِ لَنَا اصْطِبَارُ
يُرَادُ بِنَا وَأَيْنَ الْأَعْتِبَارُ
ضِيَاؤُكَ مِنْ سَنَاهُ مُسْتَعَارُ
فَفِيمَ يَغُولُ أَنْجُمَهَا انْكِدَارُ
دُخَانًا مَا لِقَاتِرِهِ شَرَارُ

يشير إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ الآية.

قَضَاهَا سَبْعَةٌ وَالْأَرْضُ مَهْدًا دَحَاهَا فَهِيَ لِلْأَمْوَاتِ دَارُ

دحاها: بسطها أو أوسعها.

فَمَا لِسُمُومٍ مَا أَعْلَى انْتِهَاءُ وَلَا لِسُمُوكٍ مَا أَرْسَى قَرَارُ

سَمَكُ الشَّيْءِ: رَفْعُهُ.

وَلَكِنْ كُلُّ ذَا التَّهْوِيلِ فِيهِ لِذِي الْأَلْبَابِ وَعَظُّ وَأَزْدِجَارُ

- (٧٠) اليبمارستان: المستشفى.
- (٧١) الصابورة: ما يوضع في باطن المركب من الثقل ليثقل ولا يميل إلى جانبيه.
- (٧٢) البوتقة: الوعاء الذي يذيب الصائغ فيه المعدن. والكير: الزق الذي يُنفخ فيه، والخبث من الذهب والحديد ونحوهما: ما نفاه الكير من غش وزيف وما لا خير فيه. والرنق: مثله.
- (٧٣) الصفر: النحاس الجيد. والزلال: الخالص.
- (٧٤) اهتبتها: اغتمتها.
- (٧٥) يلاحظ أن هذا وصف لما كانت عليه الحال سنة ١٩٢٥م، أي عقب حادث السردار (المأسوف عليه سيرلي ستاك) المشئومة.
- (٧٦) نزع الشيطان بينهم: أفسد بينهم بالحث على الشر.
- (٧٧) حميا كل شيء: شدته.
- (٧٨) ذهب ريحهم: ذهب دولتهم.
- (٧٩) التهاتف: الضحك بسخرية.
- (٨٠) جاء فلان ناشراً أذنيه: طامعاً.
- (٨١) غلواهم: من غلواء الشباب، شرته وسرعته.
- (٨٢) الإحن: الضغائن.
- (٨٣) كبد: شدة.
- (٨٤) التأث: اختلط والتبس.
- (٨٥) إدة: فظيعة.
- (٨٦) ولما: أي ولم تقطف بعد. وكأن قد: وكأنها قد قطفت.
- (٨٧) يشير إلى الثورة المصرية سنتي ١٩١٨-١٩١٩، وإلى الاتحاد الذي كان في سنة ١٩٢٧ بين المغفور لهم: سعد زغلول، وحسين رشدي، وعبد الخالق ثروت.
- (٨٨) اصطلمت: استؤصلت.
- (٨٩) الآلاقي: الشدائد.
- (٩٠) مآتاته: المكان الذي يأتي من ناحيته ومصدره.
- (٩١) لف لفهم: من عد فيهم وانتمى إليهم.

(٩٢) غمطه: احتقره وازدراه.

(٩٣) أملى الله للظالم: أمهله. والطول: الحبل الذي يطول للدابة فترعى فيه، والطول أيضاً: التمادي في الأمر والتراخي، والمعنى ظاهر.

(٩٤) الأوزار: جمع وزر، الإثم والحمل الثقيل.

(٩٥) يقال: فلان مؤدم مبشر: إذا كان كاملاً من الرجال. وقال الأصمعي: هو الذي قد جمع ليناً وشدة مع المعرفة بالأمور، قال: وأصله من أدمة الجلد وبشرته، فالبشرة ظاهره وهو منبت الشعر، والأدمة باطنه وهو الذي يلي اللحم، قال: والذي يراد منه أنه قد جمع لين الأدمة وخشونة البشرة وجرب الأمور، وفي المثل: إنما يُعاتب الأديم ذو البشرة: أي يعاد في الدباغ، ومعناه: إنما يُعاتب مَنْ يُرجى وفيه مسكة وقوة، ويُراجع مَنْ فيه مراجع ... ويقال: فلان إدام قومه وأدم بني أبيه لثمالهم — غياثهم — وقوامهم ومن يصلح أمورهم.

(٩٦) أصل النعرة: الذباب الأزرق يتولع بالبعير ويدخل في أنفه فيركب رأسه، ثم استُعيرت للنخوة والأنفة والكبر، فيقال لكل مَنْ ركب رأسه: فيه نعرة، وفي رأسه نعرة.

(٩٧) نضا: نزع. والمجن: الترس وكل ما وقى من السلاح. ولبس جلد النمر، وقلب ظهر المجن: تحول عن الصداقة إلى العداوة وأسقط الحياء وفعل ما شاء.

(٩٨) الجذب: القحط وما قابل الخصب، وعن الحسن البصري في وصف ناس: أجدب قلوب وأخصب ألسنة.

(٩٩) صلدت: صارت صلدة لا تبض ولا تورى، ومن ذا يقال للبخيل: صلدت زناده.

(١٠٠) يقال: بلد فلان بعد نشاط: إذا فتر ونكس، قال الشاعر:

جَرَى طَلْقًا حَتَّى إِذَا قِيلَ سَابِقُ تَدَارَكُهُ أَعْرَاقُ سُوءٍ فَبَلَدًا

(١٠١) يقال: لبست على كذا أذني، إذا سكت عنه ولم تتكلم وتصاممت عنه، قال ابن مفرغ:

فَلَبِستُ سَمْعَكَ ثُمَّ قُلْتُ أَرَى الْعِدَى كَثُرُوا وَأَخْلَفَ مَوْعِدِي أَشْيَاعِي

(١٠٢) الأظلم من الإبل: باطن المنسم — المنسم للبعير كالظفر للإنسان — ومن الإنسان بطن الإصبع، وفي المثل: إن يدم أظلك فقد نقب خفي، قال أبو عبيدة: يقال هذا إذا أراد المشكو إليه أنه في نحو مما فيه صاحبه الشاكي، أي إنني في مثل حالك. (١٠٣) دحضت رجله: زلقت.

(١٠٤) المعمودية: اصطلاح مسيحي، وهي غسل الصبي وغيره بالماء باسم الأب والابن وروح القدس، قال صاحب المنجد: وهي أول أسرار الدين المسيحي وباب النصرانية. (١٠٥) آض يئيض: صار. والصل: الحية الخبيثة جدًا. والمسلاخ: الإهاب وقشر الحية الذي تنسلخ منه.

(١٠٦) الحرباء: دويبة على شكل سام أبرص، ذات قوائم أربع، دقيقة الرأس مخططة الظهر، يستقبل الشمس برأسه ويكون معها كيف دارت، يقال: إنما يفعل ذلك ليقى جسده برأسه، ويتلون ألوانًا بحر الشمس، والأنثى: الحرباء. (١٠٧) أبو براقش: طائر يتلون ألوانًا، شبيه بالقفذ، أعلى ريشه أغبر، وأوسطه أحمر وأسفله أسود، فإذا انتفش تغير لونه ألوانًا شتى، قال الشاعر:

إِنْ يَبْخَلُوا أَوْ يَجْبُنُوا أَوْ يَغْدِرُوا لَا يَحْفَلُوا
يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجِلٍ بَيْنَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا
كَأَبَى بَرَاقِشَ كُلُّ لَوْ نِ لَوْنُهُ يَتَخَيَّلُ

وصف هذا الشاعر قومًا مشهورين بالمقابح، لا يستحون ولا يحتفلون بمن رآهم على ذلك، وقوله يغدوا: بدل من قوله لا يحفلوا؛ لأن غدوهم مرجلين دليل على أنهم لم يحفلوا. والترجيل: مشط الشعر وإرساله.

(١٠٨) فقام: جماعات.

(١٠٩) الطلاء: الخمر.

(١١٠) عبيثة ولويثة: ليسوا من أب واحد تهبشوا من أماكن شتى، ويقال لمن ليس له نسب معروف أو لا أصل ولا قوم ولا أب ولا شرف: ما يُعرف لهم مضرب عسلة.

(١١١) أي عرقت فيهم عرق سوء. وذو أشب: أي ذو اختلاط.

(١١٢) يقال: فلان حرب لي: أي عدو وإن لم يكن محاربًا.

الأديب يركب زورقًا في الجنة

- (١١٣) الجالة والجالية: الذين جلوا عن أوطانهم.
(١١٤) اللبسة: الالتباس وعدم الوضوح.
(١١٥) الفلح: الشق والقطع.
(١١٦) أخو الشر: هو الخير، وأخو الخير: هو الشر.
(١١٧) العرض: موضع المدح والذم من الإنسان، سواء كان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره، وقيل: هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنه أن يُنتقص ويُتلب، وقال أبو العباس ثعلب: إذا نُكِرَ عرض فلان فمعناه أمره التي يرتفع أو يسقط بذكرها من جهتها بحمد أو ذم، فيجوز أن تكون أمورًا يوصف هو بها دون أسلافه، ويجوز أن تذكر أسلافه لتلحقه النقيصة بعيبيهم.
(١١٨) تحاموا ظلمه: تباعدوا عنه. وعز عنه: امتنع عنهم. والعزة: القوة والشدة. وجانباه: ناحيتاه. واحتمي: امتنع. ولان: ضعف وسهل. والأنبأث: التراب المستخرج من البئر، يقال: نبت ينبت: إذ حفر. والسفا هنا: التراب، وهو ما تسفيه الريح، أي تحمله وترمي به، وقيل: السفا تراب القبر، والسفا في غير هذا: شوك البهمي (البهمي: نبات يشبه الشعير).
(١١٩) الحر من كل شيء: خياره وطيبه. والذماء هنا: الروح، يقال: أطول ذماء من الضب. والذماء في الأصل: بقية الروح، يقال: ما بقي منه إلا ذماء يتردد في خيال.
(١٢٠) يقال: فلان في رباوة قومه، وفي الروابي منهم: أي في أشرافهم وسرواتهم.
(١٢١) النكباء: الريح تنحرف عن مهاب الرياح وتقع بين ريحين.
(١٢٢) القعساء: الثابتة.
(١٢٣) أصل العيص: منبت خيار الشجر، قال جرير:

فَمَا شَجَرَاتُ عَيْصِكَ فِي قُرَيْشٍ بَعِشَاتِ الْفُرُوعِ وَلَا ضَوَاحِي

وفلان في عيص أشب: أي في عز ومنعة في قومه، والأشب في الأصل: الشجر الملتف، ثم قالوا منه في أمثالهم، في استعطاف الرجل صاحبه على أقربائه وإن كانوا له غير مستأهلين: عيصك منك وإن كان أشبًا؛ أي وإن كان ذا شوك داخلًا بعضه في بعض، وهذا ذم، وقد يريدون المدح في مثل قول الشاعر:

وَلَعَبْدِ الْقَيْسِ عَيْصٌ أَشْبُ

لأنه يريد المنفعة والكثرة والعز والمنعة ... والفعال — بفتح الفاء — المراد به هنا الكرم — ضد اللؤم — أما أهل اللغة فقد اختلفوا، فقال الليث: الفعال: اسم للفعل الحسن من الجود والكرم ونحوه، قال هدية:

ضَرُوبٌ يَلْحَبِيهِ عَلَى عَظْمِ زَوْرِهِ إِذَا الْقَوْمُ هَشُوا لِلْفَعَالِ تَقَنَّعًا

وقال ابن الأعرابي والأزهري والمبرد: الفعال يكون في المدح والذم، يقال: فلان كريم الفعال، وفلان لثيم الفعال.
(١٢٤) القناة: الرمح، والقناة أيضًا: القامة، يقال: فلان صلب القناة. والغمز: العصر باليد، قال الشاعر:

كَانَتْ فَنَاتِي لَا تَلِينُ لِغَامِرٍ فَأَلَانَهَا إِصْبَاحُ وَإِمْسَاءُ

وهذا مثل يريد أنه كان صلب العود شديد القوة على من يشتهه ويجترئ عليه، والمراد هنا كذلك أنهم من القوة بحيث لا يؤثر فيهم مؤثر.
(١٢٥) تهضمه: ظلمه، وتهضمت نفسي له: إذا رضيت منه بدون النصفة والمعدلة.
(١٢٦) الجبورة: كالجبوت، الكبر الذي لا يرى صاحبه لأحد عليه حقًا، قال:

فَإِنَّكَ إِنْ عَادَيْتَنِي غَضَبَ الْحَصَى عَلَيْكَ وَذُو الْجُبُورَةِ الْمُتَغَطِّرُفُ

يقول هذا الشاعر: إن عاديتني غضب عليك الخليفة، وما هو في العدد كالحصى، والمتغطرف: المتكبر.

(١٢٧) يقال: هم سواسية: إذا استوتوا في اللؤم والخسة والشر، قال الفراء: يقال هم سواسية: أي يستونون في الشر، قال: ولا أقول في الخير. هذا ومن أمثالهم: سواسية كأسنان الحمار، وهو من أشد الهجاء؛ وذلك لأن أسنان الحمار مستوية، وهذا مثل ما روي في الحديث: «لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا، فإذا تساوا هلكوا.» وأصل هذا أن الخير في النادر من الناس، فإذا استوى الناس في الشر ولم يكن فيهم ذو خير كانوا من الهلكى. وقيل: أراد بالتساوي: التحزب والتفرق، وأن لا يجتمعوا في إمام، ويدعي كل

واحد منهم الحق لنفسه فينفرد برأيه ... والعبادي: أي الرجل المنسوب إلى عباد، وهم قوم من قبائل شتى من بطون العرب، اجتمعوا على النصرانية فأنفوا أن يتسموا بالعبيد، وقالوا: نحن العباد، نزلوا الحيرة، ومنهم عدي بن زيد العبادي الشاعر.

(١٢٨) يقال لمن لا يصلح لخير ولا لشر ولا يُحفل به: لا في العير ولا في النفير. والعير: هي عير قريش — أي قافلتها وميرتها، والإبل التي تحمل تجارتها — التي أقبل بها أبو سفيان من الشام فنهد إليها المسلمون من المدينة وكانت غزوة بدر، وأما النفير فمن نفر من قريش ليدفع عن العير فجاءوا، وكانت وقعة بدر كما قلنا. وقد جاء هذا المثل في حديث طريف نورده هنا لروعته وجماله: رُوي أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالدًا — وكان هذا خالد من رجالات قريش عقلًا وعلماً وفصاحة — فقال: يا أخي لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك، فقال له خالد: بئس والله ما هممت به في ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين، فقال: إن خيلي مرت به فعبث بها وأصغرني، فقال له خالد: أنا أكفيك، فدخل خالد على عبد الملك بن مروان والوليد عنده، فقال: يا أمير المؤمنين، الوليد ابن أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فعبث بها وأصغره — وعبد الملك مطرق — فرفع رأسه وقال: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون، فقال خالد: وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا، فقال عبد الملك: أفي عبد الله تكلمني؟ والله لقد دخل علي فما أقام لسانه لحناً، فقال له خالد: أفعلى الوليد تعول؟ فقال عبد الملك: إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان! فقال خالد: وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد؟ فقال له الوليد: اسكت يا خالد، فوالله ما قعد في العير ولا في النفير، فقال خالد: اسمع يا أمير المؤمنين، ثم أقبل على الوليد وقال: ويحك فمن العير والنفير غيري؟! جدي أبو سفيان صاحب العير، وجدي عتبة بن أبي ربيعة صاحب النفير، ولكن لو قلت: غنيمات وحبيلات والطائف ورحم الله عثمان، لقلنا: صدقت ... «قوله غنيمات وحبيلات: يعني أن رسول الله ﷺ لما أطرده الحكم بن أبي العاص بن أمية — وهو جد عبد الملك بن مروان — لجأ إلى الطائف، فكان يرمى غنيمات ويأوي إلى حبيلة، وهي الكرمة، وقوله رحم الله عثمان: أي لرده إياه.»

(١٢٩) يقال فلان يصغي إناء فلان: إذا نقصه ووقع فيه، قال:

فَإِنَّ ابْنَ أَخْتِ الْقَوْمِ مُصْغَىٰ إِنَاؤُهُ إِذَا لَمْ يُمَارِسْ خَالَهُ بِأَبٍ جَلِدِ

(١٣٠) الموطئون أكنافاً: يريد وصفهم بدمائة الخلق ولين الجانب، والثرثارون: يعني الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتجاوزاً وخروجاً عن الحق، من قولهم: عين ثرة، أي كثيرة الماء. والمتفیهقون: من قولهم فهق الغدير: إذا امتلأ ماء، يريد أنهم يوسعون أشداقهم ويملأونها بالكلام.

(١٣١) ذو النورين: عثمان بن عفان. وأبو تراب: علي بن أبي طالب. وابن أبي سفيان: معاوية.

(١٣٢) ران عليه: غلب عليه.

(١٣٣) إحدى قصائده الخالدات.

(١٣٤) الوديلة: المرأة.

(١٣٥) خرمة: نقصه. وأحيف: أجور.

(١٣٦) صداء: ركية — بئر — ليس عند العرب ماء أعذب من مائها، وفي المثل: ماء

ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان.

مأدبة جامعة في قصر الشيخ محمد عبده بالجنة

حدّث الأديب الثقة قال:

وتعلّم — علمت الخير — أن أهل الجنة يتزاورون ويدعو بعضهم بعضاً، كأهل العاجلة؛ توفيراً لأنسهم، وتتميماً لمسراتهم، قال جل وعز: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَتَدَّأُ مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَتِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لُزْدِينٍ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

قال الأديب: فلما انتهينا إلى هذا الموضوع من الحديث، وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر مما رغب الإخوان أن يستطلعوا طلعه، ويقفوا عليه شئون مصر والمصريين، طلع علينا في الخيمة سرب من الحور العين، بجانبه فوج من الولدان المخلدين، وأخذوا يدعوننا واحداً واحداً إلى مأدبة كبرى أمر بصنعها الشيخ محمد عبده، وأدب إليها كثيراً من أعيان الإسلام، وأئمته الأعلام، من فقهاء ووعاظ وعلماء، وفلاسفة وأدباء، وكتاب وشعراء، ولغويين وأطباء، ومغنين وملوك ومن إليهم، فملت إلى الشيخ حمزة فتح الله وقلت له: هل هذه الدعوة دعوة الجفلى أو دعوة النقرى؟ فقال: إن هذه الدعوة وإن كانت دعوة النقرى، إلا أنها من قبيل غير القبيل الذي يبرأ منه طرفة بن العبد وينزه نفسه وقومه عنه، إذ يقول:

نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى لَا تَرَى الْآدِبُ فِينَا يَنْتَقِرُ^٢

إذ إن للشيخ محمد عبده غرضًا ساميًا نبيلًا يترامى إليه بهذه الدعوة ستعلم نبأه بعد حين.

قال الأديب: أما أنا فما كاد نبأ المأدبة يصفاح أذني حتى كدت أذوب فرحًا، وأطير مرحًا، وأخذت أهرول أنا وإمام العبد، وانطلقت كالمهر الأرن في ميعة حضره،^٣ ولم لا يطير بنا الفرخ، ولم لا يستخفنا الطرب، وهناك مأدبة فاخرة، وأفواه فاغرة، وجماعة من صفوة هذه الأمة الطاهرة؟ آه يا أخي آهة الرجل الحزين، إن نفسي تساقط حشرات على أثر ما قد فاتها من نعيم الفردوس، وعندي أنه لو لم يكن للأجلة على العاجلة من مزية سوى أن أهلها لا يضيرهم الطعام والشراب، فلا يصيبهم بَشْمٌ وتُخْمَةٌ، وكظة وبردة، وغصص وشرق، ونزيف وصداع، وأذى وخمار،^٤ مهما طعموا وشربوا، لرجحت الأولى بالثانية، وشالت في الميزان كفة الفانية:^٥ ولكن تأتت الأقدار لحكمة بالغة إلا أن يشاب كل شيء في دار البلاء، بما يكدر صفوه، ويخبث عفوه،^٦ حتى الطعام والشراب:

طُبِعَتْ عَلَى كَدْرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَقْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبُ فِي الْمَاءِ جُدْوَةَ نَارِ

وإلا فهل هناك لذة تعدل لذة الشراب والطعام، ولا سيما لصاح الأجسام، وإنها للذة على هذا متجددة تعاد في اليوم الواحد مرات، وتتكرر وجبات،^٧ وهي على تكرارها لا تمل، وعلى تردادها تحلو ولا تمر:

كِرِيْقَةِ الْمَرْءِ لَا تَنْفَكُ فِي فَمِهِ وَمَا يَمَلُّ لَهَا طَعْمًا لِإِبَّانِ^٨

من عذيري أيها الناس^٩ من لحوم الطير وسائر الحيوان البري منه والبحري، والإنسي والوحشي، ومن لي بالفواكه على وفرة صنوفها، والخضر على تنوع أنواعها وضروبها، وما أُحِيلَى الحلوَاءِ والفطائر، وسائر ألوان هذه الأشباه والنظائر، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، كلوا من طبيبات ما رزقناكم واشكروا لله، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ...

وَأَلْمِ يُغْرِ رَبُّكَ أَدَمَ بِالْخُلُودِ فِي الْجَنَّةِ بِأَنْ قَالَ لَهُ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى
* وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ ١٠.

فبدأ باشتراط الشبع. والله عبد الله بن عباس إذ يقول: كُلُّ مَا شَتَّتَ والبس ما شتت ما أخطأك إسراف ومخيلة،^{١١} وإذا كان هناك — عَمَرَكَ اللهُ^{١٢} ووقاك — مَنْ هُوَ جَدِير بالرحمة والرتاء، فليس أحق بذلك من المعود، والممنون بأدواء البطون،^{١٣} وإنه ليعجبني الرجل قد أُوتِيَ حُمَةَ القرم وبالغ اللقم،^{١٤} فتراه يحط في الطعام^{١٥} ويعصف فيه عصف الريح، حتى لكأنه تمساح من التماسيح، ويضرب فيه كما يضرب الولي السوء في مال اليتيم، ويتملاً منه حتى ينطفئ نهمه، وتنتأ رمانته،^{١٦} لا ذلك المتنوق المترف الأزوم^{١٧} الذي أخذَه الإباء فتراه يخط في الطعام خطأً^{١٨} ... وإذا جاز لي أن أحسد أحداً على ما أتاه الله من فضله فلست أحسد إلا ذلك النهم الحطمة المبطان^{١٩} الذي أُوتِيَ معدة شيطانها رجيم، على شريطة أن تسعده الحال، ولا يؤذيه الأكال: ٢٠

لَوْ أَكَلْتُ فَيَلِينُ لَمْ تَخَشَّ البِسْمُ

وَمَنْ لِي بِذَلِكَ النُّبُوغِ الكَرشِيِّ، وتلك العبقرية المعوية التي أوتيتها معاوية والحجاج وسليمان بن عبد الملك،^{٢١} وعبيد الله بن زياد وَمَنْ عَلَى شاكلتهم من نوابغ الأكلين، لقد أُوتوا من دواعي اللذة الحظ العظيم! وهل هناك — أثار الله بصيرتك — أسخف من جماعة النباتيين، وإن لي مع شيخهم شيخ المعرة لحديثاً سيمر بك بعد حين، وكيف لا يعذر المعتز^{٢٢} المحروم إذا تهالك على لذيذ المطعوم، وما أظرف ذلك الأعرابي الذي لا عهد له إلا بالشيخ والقيصوم،^{٢٣} ولسان حاله يقول:

الابْيَضَانِ أَبْرَدًا عِظَامِي الْمَاءُ وَالْفَتْ بِلَا إِدَامِ

وقد حضر طعام أحد الأمراء وأكل معه، فلما أحضر الفالوج^{٢٤} قال له الأمير: إن أكلت هذا حززت رأسك، فأطرق ملياً، ثم مد يده إليه وقال: أوصيك أيُّهَذَا الأمير بصبيتي خيراً ... ومثله الأعرابي الذي أكل يوماً معاوية، فأخذ شيئاً من بين يديه، فقال له معاوية: لقد انتجعت، فقال الأعرابي: مَنْ أَجْدَبَ انتجع!^{٢٥} ثم أحضر جدي حنيذ،^{٢٦} فأخذ الأعرابي يمزقه ويمعن في أكله، فقال معاوية: يا هذا، أطلب هذا البائس بِذَحْلِ^{٢٧} هل نطحتك أمه؟ قال: وأبيك إنك لشفيق عليه! هل أرضعتك أمه! وكان لزياد بن عبد الله

الحارثي جدي لا يمسه أحد، فعشَى في شهر رمضان قومًا منهم أشعب، فعرض أشعب يومًا للجدي من بين القوم، فقال زياد حين رُفعت المائدة: أما لأهل السجن إمام يصلي بهم؟ قالوا: لا، قال: فليصل بهم أشعب، فقال أشعب: أوغير ذلك أيها الأمير؟ قال: وما هو؟ قال: لا أكل لحم جدي أبدًا ... وهل يعيب التطفيل وينتقص المتطفلين إلا كل أحق مآفون ... إن التطفيل ثورة معوية حارة تلتظى على المترفين ... ولكنها ثورة سلمية سائغة مقبولة متواضعة، كل سلاحها وجه وقاح وشيء من إراقة ماء الوجه ... على أنه لا يدعو هذا السلاح «إراقة ماء وجه» إلا أنا وأنت، أما رجال الفن ... أما مَنْ تدعوهم متطفلين، فلا يغدو ذلك في رأيهم أن يكون «تقاضي حق» من أناس قد أمعنوا في ترفهم، ولم يرضخوا للمحزومين بلماظة من حقوقهم: ٢٨

يَبِيْتُونَ فِي الْمَشْتَى مِلَاءُ بَطُونُهُمْ وَجَارَاتُهُمْ سَعْبٌ يَبْتَنَ حَمَائِصًا ٢٩

ولحا الله أبا عمرة، ٣٠ ولا أبعد غيره، إنه شر ما يُمنى به المرء في دنياه، وما أفظح الإنسان إذا نقنقت ضفادع بطنه، وعض الصفر على شراسيفه بنابه وسنه. ٣١
أطعموا الجائعين أيها الناس، واتقوا صولة الإنسان إذا نال منه سعار الجوع، وإلا ثار ثأره عاصفًا بكم بعد طول هجوع ...

هوامش

- (١) يقال دعاهم النقرى: إذا دعا بعضًا دون بعض، ينقر باسم الواحد بعد الواحد، وإذا دعا جماعتهم فهي دعوة الجفلى.
- (٢) في المشتاة: يعني وقت الجذب. والآدب: الداعي.
- (٣) الأرن: النشيط المرح. وميعة الحضر: أوله وأنشطه. والحضر: الجري.
- (٤) البشم والتخمة: ما يصيب الإنسان من الطعام من ثقل. والكظة: البطنة، كظة الطعام والشراب: إذا ملأه وغمه حتى لا يطيق التنفس. والبردة: التخمة وثقل الطعام على المعدة، وفي الحديث: «أصل كل داء البردة.» والغصص: من غص بالطعام، اعترض في حلقة شيء منه فمنعه التنفس. والشرق بالماء ونحوه: كالغصص بالطعام. والنزيف: زهاب العقل من السكر. والخمار: بقية السكر.
- (٥) شال الميزان: ارتفعت إحدى كفتيه، والكلام على المثل: والمراد لفضلت الآخرة على الدنيا.

- (٦) عفو كل شيء: ما صفا منه.
(٧) الوجبات: جمع وجبة: الأكلة الواحدة في اليوم.
(٨) إبان: وقت.
(٩) أي من يعذرني إذا أنا أولعت بهذه الأشياء.
(١٠) ولا تضحى: لا تصيبك شمس مؤذية، قال عمر بن أبي ربيعة:

رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعِشِيِّ فَيَخْضِرُ

فيخصر: فيبرد ويؤذيه البرد.

- (١١) المخيلة: الاختيال والزهو والكبر.
(١٢) عمرك الله: أي سألت الله أن يطيل عمرك، قال الكسائي: عمرك الله: نُصِبَ على معنى عمرك الله: أي سألت الله أن يعمرك، كأنه قال: عمرك الله إياك.
(١٣) ممعود: ذربت معدته فلم تستمرئ ما يأكله. وممنو: مصاب. وأدواء: جمع داء.

(١٤) القرم: شدة شهوة اللحم حتى لا يصبر عنه. وحمته: شدته. واللقم: جمع لقمة.

(١٥) يحط في الطعام: يكثر منه.

(١٦) النهم: الشره وإفراط الشهوة في الطعام، ويقال: أكل حتى نتأت رمانته: وهي السرة وما حولها.

(١٧) المتنوق: المتأنق المترفق. والمترف: من الترف وهو التنعم. والأزوم: القليل الرزء من الطعام.

(١٨) يأكل شيئاً يسيراً.

(١٩) رجل حطمة: أكل.

(٢٠) الأكال: الطعام.

(٢١) حدّث الشمردل وكيل آل عمرو بن العاص قال: قدم سليمان بن عبد الملك الطائف، وقد عُرفت شراسته، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز وأيوب ابنه بستاناً لعمرو، قال فجال في البستان ساعة ثم قال: ناهيك بمالكم هذا مالا، لولا جرار فيه؟ فقلت يا أمير المؤمنين: إنها ليست بجرار ولكنها جرب الزبيب، فجاء حتى ألقى صدره على غصن ثم قال: ويلك يا شمردل! أما عندك شيء تطعمني؟ قلت: بلى والله، إن عندي لجدياً تغدو

عليه بقرة وتروح أخرى، قال: أعجل به، فأتيته به كأنه عكة — وعاء السمن — وتشمّر فأكل ولم يدع ابنه ولا عمر حتى أبقى فخذًا، فقال: يا أبا حفص هلم، قال: إني صائم، ثم قال: ويك يا شمردل، أما عندك شيء؟ فقلت: بلى والله دجاجات ست كأنهن رثلاث النعام — أولاد النعام، واحدها رأل — فأتيته بهن فكان يأخذ رجل الدجاجة حتى يعري عظمها ثم يلقبها بفيه، حتى أتى عليهن ثم قال: ويك أما عندك شيء؟ فقلت: بلى والله إن عندي لحريرة — الحريرة ضرب من الطعام يُتخذ من الدقيق يطبخ بلبن أو دسم — كقراضة الذهب، فقال: أعجل بها، فأتيته بعس — العس: القدر الكبير — يغيب فيه الرأس، فجعل يتلقمها بيده ويشرب، فلما فرغ تجشأ كأنه صاح في جب، ثم قال: يا غلام، أفرغت من غدائنا؟ قال: نعم، قال: وما هو؟ قال: نيف وثمانون قدرًا، قال: فأتني بها قدرًا قدرًا، فأتاه بها وبقناع عليه رقاق — القناع إناء من عسب النخل يوضع فيه الطعام — فأكثر ما أكل من قدر ثلاث لقم وأقل ما أكل لقمة، ثم مسح يده واستلقى على فراشه، وأذن للناس ووضعت الخوانات فجعل يأكل مع الناس.

(٢٢) المعتز: الفقير أو المتعرض للمعروف من غير أن يسأل.

(٢٣) الشيخ: نبات مر طيب الرائحة معروف. والقيصوم: نبات مر طيب الرائحة

معروف لأهل البادية.

(٢٤) الفالوج: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل.

(٢٥) الانتجاع والنجعة في الأصل: طلب الكلاء ومساقط الغيث، وفي المثل: مَنْ أَجْدَب

انتجع.

(٢٦) الحنيذ: المشوي.

(٢٧) الذحل: الثأر.

(٢٨) رضخ له من ماله رضخًا: أعطاه قليلًا من كثير. واللامظة: تُستعار لبقية

الشيء القليل، قال:

وَمَا زَالَتْ الدُّنْيَا يَخُونُ نَعِيمَهَا وَتُصْبِحُ بِالْأَمْرِ الْعَظِيمِ تَمَحَّضُ
لَمَاطَةٌ أَيَّامٍ كَأَحْلَامٍ نَائِمٍ يُدْعَعُ مِنْ لَذَاتِهَا الْمُتَبَرِّضُ

المتبرض: المتبلغ.

(٢٩) المشتى: وقت القحط والمجاعة. وسغب: جياع. وخمائص: ضامرات البطون

جوعًا.

(٣٠) أبو عمرة: كناية عن الجوع.

(٣١) نقنق الضفدع: صَوَّتَ صوتاً يفصل بينه مد وترجيع، ونقنقت ضفادع بطنه: كناية عن الجوع. والصفير — فيما تزعم العرب — حية في البطن تعض الإنسان إذا جاع، واللذع الذي يجده عند الجوع من عضه. والشرسوف: طرف الضلع المشرف على البطن، ويقال: عض الصفير على شرسوفه: إذا جاع.